البستاني

معارك العرب في الاندلس

946.02:B981mA

البستاني، بطرس.

معارك العرب في الاندلس.

946.02
B981mA

JAFET LIB.
Circulation Dept. 3
21 MAY 1996

22 Jan 68
12 Sep 68
SE 24 '56
20 APR 1978
3 Nov 65

JAFET LIB.
Circulation Dept. 3
04 JUN 1996

كتب للمؤلف

معارك العرب
١ - في الشرق والغرب
٢ – في الاندلس
٣ – في الشرق (تحت الطبع)

◎

الشعراء الفرسان

منتقيات ادباء العرب

◎

ادباء العرب
١ – في الجاهلية وصدر الاسلام
٢ – في الاعصر العباسية
٣ – في الاندلس وعصر الانبعاث

◎

اساطير العرب (في الاعداد)

946.02
B 981mA

بطرس البستاني

معارك العرب

في الأندلس

منشورات دار المكشوف

الطبعة الاولى ، بيروت – لبنان ، تموز ١٩٥٠

جميع الحقوق محفوظة لبطرس البستاني ولدار المكشوف

يوم طليطلة

تلك المملكة التي اسسها بنو امية في الاندلس، وحقق عبد الرحمن الناصر وحدتها، وبسط بغزواته الظافرة سلطانها، صار امرها الى الضعف والانحلال بعد ان سطا عليها الحاجب المنصور وانشأ دولته العامرية في قلب دولتها، حاجراً على الخليفة هشام، مستقلاً دونه بالنهي والامر. فأسقط هيبة الامويين من نفوس اهل الاندلس، ووطد فيهم هيبته بما أوتي من فتوح وانتصارات. وانتقل الملك من بعده الى ابنه عبد الملك ثم الى ابنه الآخر عبد الرحمن، وكلاهما جرى على سنن ابيه في الحجر على الخليفة، والاستبداد بالسلطة والنفوذ. غير ان عبد الرحمن طمحت عينه الى الخلافة، فطلب من هشام ان يوليه عهده، فلباه هشام ونزل

عند رغبته لما هو عليه من الضعف والاستكانة. فنقم الامويون والقرشيون على الخليفة، وخافوا ان يذهب الامر من يدهم، فخلعوه وبايعوا محمد بن هشام من حفدة عبد الرحمن الناصر، فتلقب بالمهدي. وكان عبد الرحمن غائباً في غزوة، فلما بلغه الخبر قفل الى قرطبة، فأرسل اليه المهدي من قبض عليه واحتز رأسه، فانقرضت بموته الدولة العامرية. ولكن محمد بن هشام لم يستقر ملكه على حال لانه جافى البرابرة لميلهم الى العامريين، فأتمروا به وبايعوا المستعين بالله سليمان بن الحكم. فانشق البيت الاموي بعضه على بعض، ونشبت الفتنة بين الاميرين، فمرة كان ينتصر المهدي فيهزم المستعين، ومرة كان ينتصر المستعين، فيلجأ المهدي الى الملك الاسباني فيمده ويعيده الى عرشه. ثم تم الامر للمستعين، فتغلب البربر على الاحكام وارتفع شأنهم.

وكان علي بن حمود الادريسي قد جاء من المغرب، واخذ يدعو البربر لمبايعته معتمداً على نسبه الذي يرفعه الى علي بن ابي طالب وفاطمة بنت النبي. فبايعه البرابرة، فقتل المستعين وتلقب بالناصر. فلبثت الخلافة مدة من الزمن تتنقل بين الامويين والحموديين حتى صارت للمعتضد بالله هشام بن محمد الاموي، فملك برهة يسيرة، ثم خانه وزراؤه وحرسه فخلعوه فهرب من قرطبة، وانقطعت به الدولة الاموية. فصار الامر بعده الى الوزير ابي الحزم جَهْوَر فدعا جماعة العظماء الى مشاركته في الحكم ليأمن معارضتهم، فارتضوا بذلك، ونشأ في قرطبة نوع من النظام الجمهوري ولكن من طبقة الاشراف. واما ولايات الاندلس فان

رؤساء الطوائف فيها من بربر وعرب وموال اقتسموا خططها حتى كاد يكون على كل مدينة امير مستقل فعرفوا بملوك الطوائف. ومثل هذا التفسخ العميم في جسم الدولة لا يدعو الى التفاؤل بقيام نظام سياسي ثابت تهنأ به تلك الامارات المستقلة، وبعضها يتفاوت عن بعض في قوته واتساع ارضه، فلا بد للقوي ان يطمع في ابتلاع الضعيف ليزداد به قوة، فيجد امامه اميراً منافساً ينازعه التوسع، فيأخذ الضعيف تحت حمايته فيصبح تابعاً له. وتقع الحروب بين هؤلاء الامراء فيشل واحدهم قوى الآخر. وربما استنجد بعضهم على بعضٍ الامراءَ المسيحيين فيغتنم اولئك الفرصة، فيهاجمون الاندلس يستولون على عواصمها، ويخضعون ملوكها، ويفرضون عليهم الجزية، او يجعلونهم عمالاً لهم. ولو لم يكن امراء اسبانية هم ايضاً على اختلاف مستمر وتنازع فيما بينهم، لما استطاع ملوك الطوائف ان يستقروا في الاندلس زمناً طويلاً مع ما هم عليه من تقسم وتخاذل.

وحاول ابن جهور صاحب قرطبة ان يجمع شتيت الامراء الى دولته متوهماً ان وجوده في عاصمة الامويين كافٍ لان يحمل سائر الولايات على الاعتراف بسلطانه لانها تعودت من عهد بعيد ان تخضع لحكام قرطبة، فكاتب الامراء كبارهم وصغارهم يدعوهم الى طاعته، فلم يحفلوا به، ولا تكلفوا مؤونة الرد عليه. فاضطر اخيراً الى ان يعترف باستقلالهم مكرهاً، وفي رأسه خطة يريد تحقيقها وهي ان يوسع ملكه باغتصاب الامارات الصغيرة التي لا قبل لها بمقاومته وحماية استقلالها. فوجه حملة الى هُذَيل بن

رزين صاحب السهلة ، فقهره واستولى على امارته . فالتجأ هذيل الى اسماعيل بن ذي النون امير طليطلة ، فبادر هذا الى انجاده ليحول دون توسع ابن جهور ، فطرد القرطبيين من السهلة واعادها الى صاحبها ، ثم ناصب قرطبة العداء ، فاصلاها حرباً طويلة ، تابعها من بعده ابنه المأمون . وتوفي ابن جهور سنة ٤٣٥ هـ (١٠٤٣ م) فانتقل الحكم من بعده الى ابنه محمد ، ولم يكن كأبيه صاحب قوة وعزم ، وانما عرف بالتعقل والعدالة . فأراد ان يصرف هذه الحرب عنه بالمصالحة فأباها عليه امير طليطلة وصاحب السهلة واضطراه الى القتال لطمع المأمون في الاستيلاء على قرطبة . إلا ان غارات فرديناند الاول على طليطلة وانخانه فيها كان يكره صاحبها على مهادنة ابن جهور حيناً بعد آخر . فان ملك جليقية (Galice) وقشتالة (Castille) لم يغرب عنه ضعف ملوك الطوائف وتناحرهم ، وان الفرصة سانحة لامتلاك بلدانهم وبسط سلطانه عليهم . فأخذ يهاجم الثغور الاسلامية ، ينتزع المدن والحصون من امرائها ويفرض عليهم الجزية ، فاستولى على قسم كبير من الاراضي البرتغالية ، املاك ابن الافطس صاحب بَطَلْيوس (Badajoz) واغار على الدولة الهودية في سَرَقُسْطه (Saragosse) فأخضعها وألزم اميرها ان يؤدي له الجزية ويعينه على امراء المسلمين . وأخضع ايضاً المأمون امير طليطلة وألزمه كما ألزم ابن هود . ثم غزا المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية فدحره وضرب عليه الجزية . فأصبح اعاظم الامراء الاندلسيين يقدمون الطاعة لملك الجلالقة .

ولما صارت طليطلة في حماية فرديناند نشط اميرها المأمون يحيى بن ذي النون الى محاربة ابن جهور صاحب قرطبة مستعيناً بالقشتاليين ، وباحلافه بني عامر حكام بَلَنْسية (Valence) وابن رزين صاحب السهلة . فأحس ابن جهور بالخطر المحدق بامارته ، وانه عاجز عن مقاومة هؤلاء المجتمعين عليه ، فاستصرخ المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية ، وابن الافطس امير بطليوس ، داعياً اياهما الى التحالف على طليطلة ، وكانت تهددهم جميعاً ، مؤكداً لهما اعترافه باستقلال دولتيهما . فبادرا الى محالفته ، وامداده بالعساكر . ولكن المأمون ومن معه من الحلفاء استطاعوا ان يهزموا جيوش ابن جهور وانصاره ، وان يزحفوا الى قرطبة فيضربوا عليها الحصار الشديد . فأصبحت لا نجاة لها من السقوط إلا اذا جاءها مدد من الخارج . فعاد اميرها يستغيث بحليفه صاحب اشبيلية ، وكان المعتضد يطمع في الاستيلاء على قرطبة ليبسط بها حدود مملكته ، فرأى الفرصة سانحة لتحقيق رغائبه ، فأمدها بجيش عظيم يصحبه وزيره محمد بن عمّار . فسار الجيش اليها ، وكشف الحصار عنها ، فخرج القرطبيون يتعقبون اعداءهم . وفيما هم يدافعونهم ويثخنون فيهم اخذ ابن عمار يحتل العاصمة ، ويمتلك حصونها . وكان اميرها محمد بن جهور مريضاً ، فآلمه الخطب لا يستطيع له رداً ، فمات من قهره بعد ايام .

وعاد جيش قرطبة تخفق على رأسه الوية النصر ، وقد هزم جيوش طليطلة واحلافها شر هزيمة . ولم تكن خيانة اشبيلية لتخطر له في بال . فلما رأى عاصمته بايدي حلفائه ، وابوابها

موصدة في وجهه ، وقف مدهوشاً حائراً امام فاجعة لا يتوقعها . فدعاه الاشبيليون الى الاستسلام ، وكان على مقدمته عبد الملك ابن الامير محمد ، فراعه ان تنهار دولة ابيه ، فاندفع كالمجنون يقاتل مستميتاً ، حتى سقط عن فرسه مغمى عليه من ألم الجراح . فارتد الحارث بن الحكم قائد الجيش القرطبي بفرسانه الى مدينة الزهراء فلبث معتصماً بها مدة ، ثم جاءه نبأ موت الامير محمد وابنه عبد الملك ، فترك الزهراء ، وسار الى طليطلة فحالف عدوه ابن ذي النون ، لينتقم من ابن عباد حليفهم بالامس .

وكانت طليطلة تؤدي الجزية ، كما ذكرنا ، لفرديناند الاول ملك قشتالة ، فلما مات قطعها المأمون عن اولاده مستفيداً من اختلافهم ، فقد ثار واحدهم على الآخر ينازعه نصيبه من ملك ابيه فوقعت بين الاخوة الثلاثة حروب اهلية متتابعة ، تم فيها النصر اخيراً لبكرهم شانجه (Sancho) فضم اليه جميع ممتلكات والده سنة ١٠٧٠ م ، وهرب اخوه غرسيه (Garcia) الى اشبيلية مستجيراً بالمعتمد بن عباد ، وكان قد ولي الامر بعد ابيه المعتصد . ولجأ اخوه الثاني الفنس الى طليطلة مستجيراً بالمأمون ، فأحسن وفادته وانزله عنده عزيزاً مكرماً . إلا ان شانجه لم يعش طويلاً بعد استئثاره بالدلة ، و فقد قتل غيلةً في كمين نصب له سنة ١٠٧٢ . ويقول المستشرق الالماني جوزف اشباخ ان هذا الكمين حدث بمسعى اخته اوراكا او اخيه الفنس ، او كليهما معاً .

ولما انتهى الخبر الى الفنس غادر طليطلة وجاء لاون فاعتلى عرشها ، نصيبه من ابيه ، ثم جمع اليه عرش قشتالة نصيب اخيه

شانجه ، وترك جليقية لاخيه غرسيه يتمتع بها بضعة اشهر ، ثم انتزعها منه بعد ان اعتقله خدعةً سنة ١٠٧٣ وزجه مغلولاً في بعض الحصون ، فلبث طوال حياته سجيناً حتى مات .

ولم يغفل الفنس عن تعزيز سياسته في الاندلس الاسلامية ، وله من امير طليطلة صديق آواه يوم كان طريداً ضعيفاً ، فعقد حلفاً بينه وبين المأمون تعاهدا فيه على الصداقة الخالصة والتعاون المشترك في ما يؤول الى خير بلديهما ، فأصبح في وسع صاحب طليطلة ان ينتقم من عدوه ابن عباد ويستولي على قرطبة ، فوجه اليها جيشاً من فرسان طليطلة ، والمرتزقة القشتاليين ، معقود اللواء على الحارث بن الحكم قائد ابن جهور ، فهاجم الحارث عاصمة الامويين حين غرة ، ودخلها دون ان يلقى مقاومة . على انه ما تحول الى الزهراء يريد امتلاكها حتى تصدى له سراج الدولة ابن المعتمد بن عباد بحرس من المغاربة يدافع عن قصور الملوك وذخائرهم ، الى ان سقط في المعمعة صريعاً فانهزم الحرس ، وتم النصر لطليطلة (٤٦٨ — ١٠٧٥) .

ودخل المأمون قرطبة ظافراً ، إلا انه لم يُمتع بانتصاره فقد توفي ، وكان كبير السن مريضاً . ويقول ابن خلدون انه مات مسموماً وحمل الى طليطلة فدفن بها . وكان ابنه وولي عهده هشام قد مات قبله ، فأوصى بالملك لحفيده القادر بالله يحيى بن اسماعيل ، وكان هذا قاصراً فأقام له مجلس وصاية من صديقه الملك الفنس السادس والحارث بن الحكم وبعض الولاة . ولكن هذه الثقة بحليفه لم تقع موضعها ، فملك قشتالة نسي ضيافة طليطلة وعطفها

عليه، ونسي صديقه المأمون يوم أمنه من خوف، وغابت عنه العهود التي واثقه عليها، وما اقسم له من الايمان على رعاية الامير القاصر وحماية بلاده. وأبت نفسه إلا ان تشعر بشعور العرش والوطن، فنجحت عنده مساعي ابن عمار وزير المعتمد، فارتضى ان يحالف صاحب اشبيلية عدو الملك الذي هو وصي عليه، وان يعده بالمساعدة في توسعه ومحاربة الامراء المسلمين. ورضي ابن عباد ان يساومه على ابناء ملته، فيترك يده حرة تتصرف في طليطلة، ثم يؤدي له الجزية صاغراً، لا يحد بها غضاضة في سبيل مطامعه. وتروي الاخبار الاسبانية ان المعتمد بن عباد بعث ابنته «سيدة» الى بلاط الفنس تمكيناً للصداقة، فاتخذها هذا حظية له. وكان امراء اسبانية المسيحية يتسرون يومئذ بالنساء تشبهاً بامراء الاندلس المسلمين. على ان الرواية العربية تنفي هذه التهمة عن امير اشبيلية، وتلقي نوراً على حقيقة المرأة المسلمة التي صارت في حوزة الملك الاسباني. فقد تمكن المستشرق لاوي بروفنسال من جلاء هذا الحادث الذي بقي غامضاً على المؤرخين المحدثين، ينفيه بعضهم، ويثبته بعضهم الآخر، وذلك اثر عثر سنة ١٩٣٤ على رواية عربية اصح من الرواية الاسبانية واثبت، اوردها ابن عذاري المراكشي في القسم الثالث من كتابه البيان المغرب، وفيها يقول ان البعث الذي ارسله الفنس السادس سنة ٥٠١ هـ (١١٠٨ م) لمحاربة ابي الطاهر تميم اخي السلطان علي ابن يوسف، وكان يحاصر قلعة اقليش (Ucles)، قتل فيه امام اسوارها ابنه شانجه من زوجة المأمون بن عباد، وكانت قد

تنصرت مع نحو سبعة آلاف فارس . فمن رواية ابن عذاري هذه يتبين ان الاميرة سيدة ليست بنت المعتمد بن عباد بل زوج ولده المأمون . وكان المأمون والياً على قرطبة من قبل ابيه ، فلما هاجمها المرابطون ، وعلى رأسهم القائد سير بن ابي بكر ، قتل المأمون في الموقعة ، ودخلها المرابطون ظافرين في ٢٦ اذار سنة ١٠٩١ (٣ صفر ٤٨٤٠ هـ) .

فالظاهر ان ارملة ابن المعتمد هربت مع ثلّة من فرسانها الى الفنس السادس محتمية به ، فتسرى بها وتنصرت مع جماعتها . ويؤيد ذلك دليل آخر وقع عليه المستشرق هنري بيريس ، وهو عبارة عن فتيا كتبت في اواخر القرن الخامس عشر ، او اوائل القرن السادس عشر ، وصاحبها الفقيه المراكشي يحيى الونشريشي ، افتى بها جواباً على سؤال : أيستطيع المسلم ان يغادر الاندلس الى افريقية اذا تيسر له ، ام يبقى فيها ليساعد اخوانه في الدين ؟ فكان جوابه بتحتيم الهجرة على من يستطيعها من المسلمين بعد استيلاء الاسبانيين على الاندلس ، محافظة على نسائهم ، لئلا تعقد زوجة بعضهم او ابنته صلتها باعداء الدين ، فيقودها الامر الى ترك الاسلام ، كما اصاب كنة المعتمد بن عباد واولادها الذين تنصروا معها وهم ابناء المأمون .

وبينا ابن عباد يزحف بجيشه الى غرناطة ليخضع صاحبها ابن باديس ، اذا الفنس يتهيأ لغزو طليطلة واحتلالها (١٠٧٩ م) ، وكانت قد ثارت على اميرها القادر بن ذي النون لاكثاره من فرض الضرائب ، ارضاء لشهواته وترفه ، او اشباعاً لمطامع ملك

قشتالة . فجاء الفنس الى طليطلة متذرعاً بحجة الدفاع عن حليفه ، فعاث في ولايتها مخرباً قراها وحصونها ، ثم ارتد عنها عندما بلغه ان المنصور امير بطليوس قادم لنجدتها . وعاد في العام التالي يفسد في بسائطها ، ويستبد بقلاعها وزروعها . وما زال يوالي عليها الغارات في كل عام حتى اضعفها ، ونهك قواها ، ورماها بالضيق والفاقة . ثم دلف اليها في السنة السادسة يبغي العاصمة نفسها ، فألقى عليها الحصار حتى منع عنهـا كل صلة ومدد . فراحت تستغيث بامير بطليوس ، فأمدها المتوكل بن الافطس بجيش على رأسه ولده الفضل ، ولكنه لم يثبت امام قوات الفنس الساحقة فانهزم مدحوراً ، ولم يبق للقادر امل من النجاة . وكان الجوع يهدد المدينة فخاف ان يثور عليـه الشعب فيقتله فأرسل الى الفنس يطلب الصلح على ان يؤدي الجزية ، ويكون تابعاً له ، فرفض الفنس مطالبه ، واشترط عليه ان يفتح ابواب المدينـة ويسلمها اليه ، واعداً بان يحافظ على ارواح المسلمين ومقتنياتهم ، وان يترك لهم المسجد الجامع يصلون فيه ، وان لا يعارضهم في دينهم وشرائعهم . وخيرهم في البقاء او المهاجرة . فمن احب البقاء يؤدي الجزية كما يؤديها المسيحيون في بلاد المسلمين . ومـن آثر الهجرة يُسمح له بان يحمل امواله حيث يشاء . وضمن للقادر ان يدع له امارة بلنسية يتصرف فيها ، ولا يبخل عليه بالمساعدة اذا احتاج الى الدفاع عنها .

في الخامس والعشرين من ايار سنة ١٠٨٥ دخل الفنس السادس ، ملك قشتالة ولاون وجليقية ، عاصمة القوط القديمة بابهة وجلال

منتزعاً من العرب احدى قواعد الاندلس الكبرى : طليطلة العاصية التي طالما تمردت على امراء المسلمين ، فبذل عبد الرحمن الناصر ، والحاجب المنصور من بعده ، اعظم الجهود لاخضاعها وكسر شوكتها ، فكان يومها المشؤوم كارثةً على الاندلس العربية لان قشتالة ، حين تملكتها ، اصبحت جاثمة على ضفتي نهر التاج ، ممدودة النظر الى ثغور المسلمين .

معركة الزلاقة

ما لبث المعتمد بن عباد امير اشبيلية ان ساوره الندم على محالفته الفنس السادس ملك قشتالة ومعاضدته له في انتزاع طليطلة من القادر بن ذي النون ، فان العاهل الاسباني ما كاد يحيط بنهر التاج من عدوتيه مستطيلاً على منافذ الاندلس العربية حتى فهد يفتتح قلاع الشاطئين وما حولها من المدن والضياع ، وراح يهدد قرطبة وماردة (Mérida) وبطليوس (Badajoz) ، فذعر المعتمد وتراءى له الخطر المحدق باملاكه فارسل الى الفنس يستوقفه عن الفتح ، ويطلب منه ان يراعي المعاهدة التي بينهما فلا يتجاوز طليطلة ، فرد عليه الفنس بما عرف به من دهاء ومراوغة ، وهو انه انما يملك ولاية طليطلة كلها شريكاً لصديقه

القادر بن ذي النون صاحب بلنسية . وكان المعتمد منصرفاً يومئذ الى محاربة ابن باديس صاحب غرناطة طامعاً في ضم هذه الامارة الى مملكته ، فاراد الفنس ان يظهر له حسن نيته من حيث يروم خداعه ، فامده بخمس مائة فارس مدرع من الاسبانيين ، ليقاتلوا معه في غرناطة ، فاوجس المعتمد شراً . وازعجته هذه النجدة التي لم يرغب فيها ، ولا شاقه قدومها ، ففضل ان يصالح ابن باديس على ان يستبقيها عنصراً خطراً في جيشه . فلما عادت الى طليطلة دون ان تسفر بعثتها عن نتيجة ترضي ملك قشتالة ، كتب هذا الى المعتمد يطلب منه ان يتخلى له عن الحصون التي يمتلكها في ولاية طليطلة . فعظم الامر على امير اشبيلية ، واوجعه خطؤه وسوء سياسته ، وعلم ان لا سبيل الى كبح مطامع الفنس الا اذا قابل الشدة بالشدة . وهو وان يكن يحمل اليه الجزية كغيره من ملوك الطوائف ، الا انه كان اوسعهم دولة ، واقواهم سلطاناً ، فلماذا لا ينتقض على الطاغية ، ويرفع عن مخنقه يداً قاسية القبض ؟ بل لماذا لا يسعى الى دعوة الامراء المسلمين ان يتركوا الخلاف ويتحدوا لدرء الخطر المشترك ؟ فقد آن لهم ان يطهروا قلوبهم من احقادها ويمد بعضهم الى بعض يده مصافياً ومعاوناً . فالامراء المسيحيون في اسبانيا ادركوا قبلهم ضرورة التعاضد للتغلب عليهم واخراجهم من تلك الارض الجميلة التي افتتحها اجدادهم ، فتناسوا ما بينهم من عداء قديم يفرقهم ويضعفهم ، فاجتمعت كلمة الفنس السادس وشانجه (Sancho) صاحب ارغون ونافار ، ورمند (Berenguer

Reymond) امير برشلونة ، فنهضوا نهضة واحدة لينقضوا على العدو الغريب متيمنين بتخاذله وانقسامه . فمتى يدرك امراء الاندلس ما ادركه امراء اسبانيا فيهبوا للدفاع عن ارضهم متضافرين لا متفسخين ؟ أفما يخلق بالمعتمد بن عباد ان تدور هذه الفكرة في رأسه عندما جاءته رسل الفنس تستنزله عن حصونه في ولاية طليطلة ؟ فاذا به لا يتلكأ عن الرفض حاملاً نفسه على الخطة الصماء يريد فصلها ، وان ساءت ساءت مغبة الفصل . فاثار رفضه سخط العاهل القشتالي كما كان ينتظر ، فنقض الحلف وجاهره العداء ، ثم زحف بجيوشه يضرب في ولايات الاندلس فاستولى على قورية (Coria) من بني الافطس ، واغار على بسائط اشبيلية ، فاثخن فيها واحرق قراها وحقولها ، حتى بلغ جزيرة طريف ، فادخل قوائم فرسه في البحر وقال : « هذا اقصى بلاد الاندلس قد وطئته . » ثم ارتدّ الى قلعة سرقسطة (Saragosse) يبتغي فتحها ، فالقى عليها حصاراً شديداً ، واعمل الحديد والنار في ولايتها . فدافعت عاصمة الدولة الهودية عن نفسها دفاع المستبسل المستميت . ولكن الاسبانيين ضيقوا الخناق عليها ، فراحت تستغيث بجاراتها المسلمة . وملوك الطوائف ضعاف متمزقون يبصرون الكارثة مقذوفة اليهم ، فتنخلع قلوبهم هلعاً ، ولا يستطيعون لها رداً . وهالهم ان تسقط سرقسطة بعد طليطلة ، قاعدة تلو قاعدة ، فماذا يكون مصير الاندلس ان لم يهبوا متساندين للنضال عنها ؟ فالمصيبة جامعة لا تعف عن واحد منهم ، ولا يؤمل بغير

الاتحاد الحؤول دون استشرائها . فتداعوا الى مؤتمر يعقدونه في مملكة ابن عباد ، اعظمهم دولة ، فاجتمعوا في اشبيلية ثم في قرطبة ، واتفقوا على ضم جهودهم لدفع المغير وانقاذ سرقسطة . بيد انهم لم يكونوا واثقين بالظفر لما يعلمون من ضعف قواهم ازاء القوات الاسبانية القاهرة . فقرروا ان يستنجدوا يوسف ابن تاشفين امير المرابطين في عدوة افريقية ، وكان صاحب شوكة وسلطان ، يسيطر على شعب مخشوشن الابدان يستطيب الحرب والكفاح ، لم ينغمس في الترف والملذات كأهل الاندلس لتخور عزائمه فيستكره القتال .

ولا يُتوقع ان يصم زعيم المرابطين اذنيه عن نداء اخوانه المسلمين ، لما به من حمية للدين ، ثم لما يضمر في نفسه من مأرب يهزه لفتح الاندلس والحاقها بافريقية ، ما دام امراؤها ضعافاً متواكلين لا يملكون وسائل الدفاع لحمايتها . فمن الخير للمسلمين ان يدخلها المرابطون ، ويمنعوها ان تقع في قبضة المسيحيين . بيد ان يوسف بن تاشفين ، على رغبته الشديدة في الذود عن ابناء ملته ، وبسط سلطانه على الاندلس ، لم يسرع الى تلبية ملوك الطوائف دون ان يتبصر بالامر ويقلبه على وجوهه ، فقد كان يجهل ارض الاندلس ، ولا يعرف الا الشيء القليل عن الامراء المسيحيين . فاشفق ان يغرر بجيشه في بلاد غريبة قبل ان يحتاط للطوارىء ، ويتدبر عواقب مغامرته واقدامه . فدعا اليه كاتبه عبد الرحمن بن أسبط الاندلسي ، وطلب منه ان يشرح له احوال اسبانيا ، وما يحول من العقبات دون

التغلب عليها . فذكر له الكاتب ان المسلمين هناك لا يعمرون الا ثمن البلاد ، في حين ان النصارى يعمرون سبعة أثمانها . وشبه اسبانيا بسجن لمن دخلها ، لا يخرج منه الا تحت حكم صاحبه . فاذا كان الامير عاقداً نيته على العبور اليها ، فيحسن به ان يجيب المعتمد بن عباد بانه لا يمكنه الجواز اليه الا اذا تنازل له عن الجزيرة الخضراء ليجعلها مقر اجناده واثقاله . ويريد عبد الرحمن بذلك ان يبقى سيده متصلاً بافريقية حتى اذا اخفق في حملته لا تسد عليه طريق الرجعة اليها . فاستصوب الامير هذا الرأي ، فكتب به الى صاحب اشبيلية ، ولبث ينتظر الجواب ويتأهب للقتال .

وكان الفنس في تلك الاثناء قد ثقلت وطأته على الولايات الاندلسية ، فلقي ابن هود اشد العناء في الدفاع عن سرقسطة ، وما سلمت من التخريب بسائط اشبيلية وحصونها . وبات الخطر يهدد المتوكل بن الافطس امير بطليوس . فرأى المعتمد بن عباد ان يستوقف شر الملك الاسباني باداء الجزية والنزول له عن الحصون المتاخمة ، فارسل اليه يسأله الهدنة ، ويبدي رغبته في تسليم الحصون ، وتقديم الاتاوة . فاوفد الفنس بعثة على رأسها احد قواده ، ومعه يهودي يقال له ابن شاليب ماهر في نقد الدراهم الزائفة . فنزلوا في ظاهر المدينة ، فوجه المعتمد اليهم المال مع جماعة من وجوه دولته ، فطلب ابن شاليب ان ينظر فيه قبل تسلمه . فاستاء الوفد الاشبيلي ، وعدوا ذلك اهانة لهم ولاميرهم . فاحتدم الجدال بينهم وبين البعثة الاسبانية ،

فأصر اليهودي على طلبه ، فاقترح القائد السفير ان يقدم ابن عباد بدلاً من المال سفناً حربية . فعاد المندوبون بالمال الى سيدهم ، واخبروه بما حدث ، فتلظى حنقاً حتى خرج عن دائرة اعتداله ، فامر بقتل السفير ومن معه ، وكانوا ثلاثمائة ، ولم ينج منهم غير ثلاثة تمكنوا من الفرار . ويروي صاحب « نفح الطيب » عن ابن اللبانة شاعر المعتمد ان الامير لم يقتل من البعثة غير اليهودي فقد امر بصلبه . واما المسيحيون فانه اكتفى بان يزجهم في السجن .

ويقول ابو عبد الله الحميري في « الروض المعطار » ان الفنس طلب زيادة على الضريبة والحصون ان تأتي امرأته الى قصور الزهراء فتنزل فيها الى ان تلد ، لان القسيسين اشاروا عليها بان تتردد على الجامع الكبير في قرطبة لتتبرك مدة حملها بزيارة الكنيسة التي كانت بجانبه الغربي قبل بنائه ، فرفض ابن عباد هذا الطلب ، فراجعه ابن شاليب واغلظ له القول ، حتى اغضبه فأمر بصلبه منكوساً .

ثم فكر بما يجر عليه هذا الحادث من وخيم المغبة ، فملك الجلالقة لا يصبر عن الاثئار لبعثته ، وقد اتسع الخرق بينهما فما يمكن استرضاؤه الا بشروط لا تطاق . فوطن النية على استدعاء المرابطين ثانية والتنازل لزعيمهم عن الجزيرة الخضراء . فدعا ابنه الرشيد ولي عهده ، وافضى اليه بما يعتزم عليه . فمانع الرشيد وحذر والده خطر المرابطين اذا دخلوا الاندلس وامتلكوا قاعدة فيها . فاجابه المعتمد بكلمته المأثورة : « رعي

الجمال خيرٌ من رعي الخنازير » ، اي انه يفضل ان يكون مأكولاً ليوسف بن تاشفين يرعى جماله في الصحراء على ان يكون اسيراً عند الفنس يرعى خنازيره في قشتالة .

وتلقى امير المرابطين دعوة ابن عباد ، وكان ينتظرها ، فحشد جيشه في سبتة ثم اجتاز المضيق الى الجزيرة الخضراء في شهر ربيع الآخر ٤٧٩ هـ (آب ١٠٨٦ م) فوجد امير اشبيلية قد خف لاستقباله في مائة فارس ووجوه اصحابه . فتقدم المعتمد يريد تقبيل يده اظهاراً لطاعته ، فمنعه يوسف ، فتصافحا وتعانقا كصديقين لا كتابع ومتبوع . ثم تسلم الزعيم الافريقي الجزيرة ليتصرف فيها ، فاحتل بجيشه قلعتها ، واهتم بتعزيز حصونها ، وتنظيم حاميتها ، واعداد المؤن والذخائر فيها لتكون له موئلاً يفزع اليه اذا حالفه النصر في حملته . فلما اتم تجهيزها شخص الى اشبيلية فلبث ثمانية ايام يؤهب جيوشه منتظراً في الوقت نفسه قدوم الامراء الاندلسيين بقواتهم لينضموا اليه . حتى اذا اكتملت عدة الجيوش المتحالفة زحفت من اشبيلية تجوز املاك امير بطليوس ، فسار فرسان المرابطين في الطليعة وعدتهم عشرة آلاف يقودهم داود بن عائشة ، ثم الجيش الاندلسي وعلى رأسه المعتمد ، ثم الجيش الصحراوي يتقدمه يوسف بن تاشفين ، وبينه وبين جيش ابن عباد يوم واحد ، حتى بلغوا بطليوس فنزلوا بظاهرها ، فخرج اليهم اميرها المتوكل ابن الافطس فلقيهم بما يجب من الضيافات والاقوات .

وكان الفنس لا يزال يحاصر سرقسطة ، ويرميها بالحملة اثر الحملة

وهي تدافع عن نفسها يائسة ، فلما عرف بمجيء المرابطين وزحفهم اليه مع القوات الاندلسية ، خاف على طليطلة والممتلكات الجنوبية ان يقع فيها العدو ، فرفع الحصار عن العاصمة الهودية ، وارتد الى طليطلة يحشد العساكر من قشتالة ولاون وجليقية (Galice) وبسكونية (Biscaya) وأشتوريش (Asturias) ، ومن الاراضي الاسلامية التي افتتحها واخضعها ، وجاءته النجدات المتطوعة من ولايات فرنسة الجنوبيـــة طامعة في المغانم او مجاهدة في سبيل الدين . ودعا الى معونته حليفيه شانجه امير ارغون ونافار ، ورمند امير برشلونة . فلبيا دعوته وانضما اليه بقواتهما . فاجتمع لديه جيش عظيم تختلف الروايات الاسلامية في تقديره ، فمنها ما يبالغ فيه فيجعله مائتي الف راجل ، وثمانين الف فارس . ومنها ما يدهب الى الاعتدال فلا يرتفع به عن الثمانين الفاً ، منهم اربعون الفاً من ذوي الدروع الثقيلة . ويقدره ابن الاثير بخمسين الف مقاتل . ويجعله ابن خلكان اربعين الف فارس غير ما انضم اليه من الاتباع . ولا تتفق الروايات الاسلامية على عدد جيوش المسلمين ، فمنها ما يرفعه الى ثمانيـة واربعين الفاً نصفهم من الاندلسيين ، ونصفهم الآخر من المرابطين . ومنها ما يهبط به الى العشرين الفاً . ولـكنها تجمع كلها على ان عدد المسلمين كان اقل من عدد المسيحيين .

واما الروايات المسيحية فانهـــا لا تشير الى عـدد الجيوش النصرانية ، وانما تذهب الى تقدير الجيوش الاسلامية بزهاء مائة الف ، او تظهر عجزها عن احصائها ، فتقول انهـا كانت كالجراد

المنتشر . ويفترض المستشرق الالماني جوزف أشباخ عدداً متساوياً للفريقين فيقدر ان كل واحد منهما كان يجمع نحو مائة وثلاثين الفـاً الى مائة وخمسين . ونحن اذا نظرنا الى الولايات المتسعة في مملكة الفنس ، وما يُحتمل استمداده من القوات الحليفة والمتطوعة ، لا نستكثر خروجه بمقدار مائة الف لقتال عـدو يشعر بخطره بعد اجتماع الافريقيين والاندلسيين عليه . وكذلك لا يُعقل ان يوسف بن تاشفين يعبر الى الاندلس باقل من اربعين الى خمسين الفاً ، وهو مقدم على الحرب في بلاد غريبة منيعة رأينا كاتبـه عبد الرحمن يجتهد في تحذيره منها . واذا كانت فرسانه عشرة آلاف كما ذكرنا ، فلا ينبغي ان يقل عدد الرجّالة عن الثلاثين او الاربعين الفـاً . ثم ان امراء الاندلس في تحالفهم على الكارثة المشتركة لا يستغرب ان يبلغ حشدهم خمسين الفاً على اقل تعديل ليتخلصوا من عدو مخيف طالما هدد وجودهم ، وقد سنحت لهم الآن فرصة تمنّوها طويلاً حتى حصلوا عليهـا . فان تكن العساكر الصحراوية والاندلسية دون العساكر الاسبانية في مجموعها بحسب رواية المؤرخين المسلمين ، فلا يمكن التسليم بانها تقل عنها كثيراً ، فكلا الجيشين قوي متأهب احسن الاهبـة ، والموقف خطر رهيب ، والمصير غامض لا ينجلي إلا في اللقاء .

وجاءت الانباء ان الفنس زاحف بقواته الى بطليوس ، فنشط القواد المسلمون الى ترتيب صفوفهم ومعسكراتهم ، وخطب يوسف ابن تاشفين وابن عباد في اصحابهما ، وقام الفقهاء يحضّونهم على الثبات ، ويحذرونهم من الفشل . ثم جاءت الطلائع تخبر ان العدو

مشرف عليهم صبيحة يومهم وهو يوم الاربعاء. فخرج المسلمون مبكرين واخذوا مصافّهم. واقبلت الجيوش الاسبانية بخيلها ورجلها تملأ الفضاء، فنزلت على بضعة اميال من بطليوس في سهل تتخلله الغابات يُعرف باسم الزلاّقة (Sacralias)، وعسكرت تجاهها الكتائب الاندلسية يفصل بينهما نهر صغير. اما يوسف بن تاشفين فقد جعل معسكره وراء اكمة عالية، في عزلة عن معسكر الاندلسيين. فلما اخذت العساكر الاسبانية محلاتها ارسل زعيم المرابطين الى الفنس يعرض عليه الدخول في الاسلام، او تأدية الجزية، او مباشرة القتال كما هي السنّة. ومن جملة ما قاله في الكتاب بحسب رواية نفح الطيب: « بلغنا يا أدفنش انك دعوت الى الاجتماع بنا، وتمنيت ان يكون لك سفن تعبر فيها البحر الينا. فقد عبرنا اليك، وقد جمع الله تعالى في هذه الساحة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال. »

فلما اطلع الفنس على مضمون الكتاب رماه الى الارض مغضباً، وقال للرسول: « اذهب فقل لمولاك اننا سنلتقي في ساحة الحرب. »

ولم يشأ العاهل الاسباني ان يباشر القتال قبل ان يلجأ الى بعض خدائعه المعهودة، فبات ليلته لا يحرك ساكناً، والمسلمون يحسبون ان المعركة ناشبة حتماً غداة الخميس. فهبّوا في الصباح يستعدون لخوضها، واذا رسول من الفنس يحمل كتاباً الى يوسف ابن تاشفين يقول فيه: « غداً يوم الجمعة وهو عيدكم، والاحد عيدنا، فليكن لقاؤنا بينهما يوم السبت. » وفي رواية اخرى انه

استثنى يوم السبت ايضاً لانه عيد اليهود وفي المعسكرين كثير منهم ، واختار للقاء يوم الاثنين . فاستحسن الامير المغربي هذا التأجيل وخاله عدلاً فوافق عليه ولم يعلم ان الفنس يرمي به الى تعطيل اهبة المسلمين ليأخذهم يوم الجمعة على غرة وهم غير مستعدين . ولكن المعتمد بن عباد كان قد بلا مكايد حليفه بالامس ، وذاق سموم اكاذيبه ، فلم يطمئن فؤاده الى هذا الاقتراح المريب ، واستشعر الحيلة من خلاله ، فبث عيونه في الليل يتجسسون حركات الاسبانيين ، فعادوا اليه يخبرونه بانهم اشرفوا على محلة الفنس ، فسمعوا ضوضاء الجيوش واضطراب الاسلحة . فبعث الى السلطان يوسف يطلعه على الامر ويستحث نصرته . وكان الفنس قد جعل جيشه قسمين ، احدهما يقوده غرسيه ، والثاني يتقدم جناحيه شانجه ورمند ويقوم هو في قلبه . فعند السحر حمل جيش غرسيه اولاً يريد مباغتة الاندلسيين ، واذا داود بن عائشة يصدمه بفرسان المرابطين ، ويكسر من حدة هجومه . ولم يكن الاسبانيون ينتظرون هذه المفاجأة فانكفؤوا الى خط دفاعهم الثاني ، ثم اصلحوا امرهم وعاودوا الكرة على المرابطين . وحمل معهم الفنس بسائر الجيش ، يخترق فرسانه المدرعون بالحديد الخطوط الاندلسية ، وقد ارتفع الى السماء صياح الاسبانيين وقرع طبولهم . وكانت الحملة راعبة عنيفة فلم يصبر لها امراء الاندلس ، فتراجعوا مفلولين ثم ركنوا الى الفرار ، فطاردهم المسيحيون الى اسوار بطليوس . ولم يثبت في الميدان إلا فرسان اشبيلية واميرهم المعتمد بن عباد ، والفرسان المرابطون وقائدهم داود بن عائشة ، فانهم لبثوا يجاهدون

الاعداء صابرين على عض السلاح ، مستهينين بالموت ، لا يطلبون النجاة . وأظهر ابن عباد من ضروب البسالة ما يملأ النفس اعجاباً . فقد احاط به الاسبانيون من كل جهة ، فانكشف بعض اصحابه ، وفيهم ابنه عبد الله ، فأخذ يقتحم الصفوف معرضاً نفسه للوبال ، فشجّ رأسه ، وجرحت يمنى يديه ، وطعن في احد جانبيه ، وعقرت تحته ثلاثة افراس ، وهو يجالد مستأسداً لا يترك المعمعة ، ولو لم ينفّس عنه داود بن عائشة بعض الشيء لكانت عليه المحنة اشد وأقسى . فقد جاهد القائدان بفرسانهما اروع جهاد حتى لم يبق لهما امل من الدفاع ، فارتدّا باصحابهما الى الاسوار ملتحقين بامراء الاندلس الذين انهزموا في بدء المعركة ، وأسلموا محلاتهم ، فاستفاد منها الاعداء في انقضاضهم وتطويق الذين صبروا وصابروا من المسلمين . وتتبعهم الفنس بالمطاردة ليجهز عليهم ، فتدفقت وراءهم فرسان اسبانية تضرب في اقفائهم ، وبارق النصر يلوح لها مشعاً لمّاعاً . وظن الفنس واهماً ان الكسرة وقعت على جيوش المسلمين باجمعها ، وان يوسف بن تاشفين والصحراويين في جملة المندحرين ، ولكن ساء فأله ، فبينا هو يطارد المنهزمين ، واصحابه يتباشرون بالظفر ، اذا بالصرخة تتعالى وراءه في معسكره ، وقرع الطبول يتجاوب في الهواء . وكان زعيم المرابطين قد حرج بعساكره من وراء الاكمة ، وامر قائده ابا بكر ان يخف بقوة من البربر لمعونة المعتمد بن عباد والاندلسيين . وسار هو بفيالقه الضخمة الى معسكر الاسبانيين ، فأناخ عليه ، فأوقع بحاميته ، واحرق الخيام ، وانتهب ما فيها من الذخائر والسلاح . وضجت

اصوات طبوله ، فاستكّت لها آذان الفنس ورجاله . وجاءه النبأ المشئوم وهو في نشوة الظفر يتعقب الاندلسيين ، ويبعثر البرابرة الذين جاؤوا لنجدتهم . فترك المطاردة ، وارتد بجيوشه الى المعسكر لينقذه من ايدي المرابطين . وأبصر يوسف بن تاشفين عنف الكرة ، فحاد عنها حارجاً لهم عن المحلة . ثم كر عليهم فأخرجهم . ثم كروا عليه فأخرجوه . وتوالت الكرات والمعسكر ينتقل من يد الى يد . وكان امير المرابطين يمر بين مسافات المسلمين يحرضهم ، ويقوي نفوسهم على الجهاد والصبر ويقول : « يا معشر المسلمين ، اصبروا لجهاد اعداء الله الكافرين ، ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة ، ومن سلم فقد فاز بالاجر العظيم والغنيمة . » فقاتل المسلمون في ذلك اليوم قتال من يطلب الشهادة ويرغب في الموت . وقاتل المسيحيون اصدق قتال ، وصبروا اعظم الصبر ، وفي نفوسهم ما في نفوس اعدائهم من الحمية للدين والوطن . فتساقطت ألوف الضحايا من الفريقين حتى غصت بهم ساحة القتال ، وخاضت الخيل في برك من الدماء ، وسقط فيها جماعة فغرقوا في دم قتلاهم . وصارت الارض ترتجف من وقع حوافر الجياد ، وانعقد العجاج فأظلم النهار .

وكان المعتمد بن عباد وداود بن عائشة قد جمعا شمل فرسانهما بعد ان كف الفنس عن المطاردة ، فارتدا بهم في اثر المسيحيين ، وارتد بعدهما المنهزمون من امراء الاندلس وقد اشتدت عزائمهم حين تنسموا ريح النصر ، فأخذ الاسبانيون من الجانبين ، فتناهبتهم شفار السيوف تحصدهم من الامام والوراء ، وهم لا

يفترون عن المكافحة غير مصدقين انهم خسروا المعركة، يكرون على معسكرهم يستعيدونه من المرابطين، ثم ينتزعه المرابطون من ايديهم، ثم يرجع اليهم، وهم في الوقت نفسه يقاومون الاندلسيين في مؤخرتهم، حتى دنت ساعة الغروب، فكره يوسف بن تاشفين ان يأتي الظلام ويفصل بينه وبينهم على غير نتيجة، فأمر رجاله السودان، فترجلوا عن مطاياهم وعدتهم اربعة آلاف، بايديهم السيوف والدرق ومزاريق الزان، فاقتحموا خيول الاسبانيين، وأعملوا الطعن في بطونها وصدورها فازورّت بفرسانها وخامت عن المعترك من ألم الجراح. وحملت جيوش المسلمين حملة صادقة فانهزم الاسبانيون متخلين عن معسكرهم لا يأملون العودة اليه، فاستحرّ القتل فيهم فلم يفلت منهم غير طويل العمر. وابى الملك الفنس ان يهرب فلث يجمع صفوفه ويقاتل مستبسلاً مخاطراً بحياته، فلحقه احد السودان فلصق به وطعنه بخنجر فاثبته في فخذه، وهتك حلق درعه، فبادر اليه خمس مائة من فرسانه الدارعين فأنقذوه، ولكنه رفض ان يترك ساحة القتال، وآثر الموت على ان يرضى بالهزيمة. فساروا به على كره منه الى تلٍ مما يلي المعسكر ثم انحدروا الى قورية يسترهم الظلام.

وخسر الاسبانيون اكثر جيشهم في هذه الموقعة. وكذلك كانت خسارة المسلمين جسيمة لان الضائقة لزمتهم معظم النهار. بيد انهم وجدوا تعزية في النصر البهيج، فأقاموا مهرجان الفرح مساء يومهم، وبعث المعتمد بن عباد حمامة الى عاصمته تحمل رسالة البشرى لولده الرشيد، فقرئت على الناس في المسجد الجامع،

واحتفلت اشبيلية بالنصر في اليوم نفسه على ما بينها وبين بطليوس من البعد . وبات الجيش ليلته في ميدان القتال حتى تنفس الصبح ، فجمعت الوف من رؤوس الاسبانيين على شكل مأذنة ، وقام فوقها المؤذن ينادي : حيّ على الفلاح ! وانتهت معركة الزلاقة بيوم واحد الجمعة ٢٣ كانون الاول ١٠٨٦ فدوّنت حدثاً عظيماً في تاريخ الاسلام ، فهي وان تكن فتحت ابواب الاندلس لمرابطي افريقية ، لقد اثبتت فيها اقدام المسلمين مدى اربعة قرون .

رذريق والمرابطون

عاد امير المسلمين من معركة الزلاقة يجرر ذيل المجد ومن حوله ملوك الطوائف يسعون اليه بتحايا الشكر وعرفان الجميل، وهم بين سكرة النفس الغائبة، وصحوة الفكر الحاضر، تهزّهم اهازيج العساكر المنتصرة فيستسلمون للغبطة والتيمّن، ثم يلوح لهم وجه يوسف بن تاشفين في عبوسه واستعلاء نظراته، ويسمعون اصوات المرابطين ترتفع على اصوات الجنود الاندلسية، فترتعد الغبطة في قلوبهم، ويستحيل اليمن طيرة وشؤماً. يشوقهم ان يترشفوا غرة الجو مشرقاً صافياً بعد ان تلاشت عاصفة الاسبان وتمزقت سحائبهم في الشمال. فتروعهم غمامة مطلة من الجنوب، كثيفة سوداء. ينظرون الى زعيم الملثمين يسير في المقدمة عظيماً

بقوته وبطشه ، عظيماً بورعه وتقشفه ، فلا يملكون النفس عن الاعجاب بامير مسلم انقذ الاندلس المسلمة ، وابعد عنها خطر المسيحية ، فيودون لو ينطق بكلمة تبدد اوهامهم وتبعث الطمأنينة في الصدور لينقلب هذا الاعجاب حباً ومودة . ولكنه صامت لا يحدثهم بشيء عن اماراتهم ومصايرها ، فاذا هم بكرهٍ منهم يخافونه على بلادهم اكثر مما يخافون الفنس والقشتاليين .

ولم يكن خوفهم في غير محله ، فان سلطان مراكش قد عقد نيته على البقاء في الجزيرة ليشرف من كثب على الدويلات العربية ، ويتابع جهاد الاسبانيين ورد غاراتهم . ولعله ابتدأ منذ اليوم يعتبر الاندلس ولاية من اعمال افريقية لما رأى من عجز امرائها وضعفهم وتخاذلهم . غير انه فكر في شيء وفكرت الاقدار في شيء آخر . ففيما هو يتأهب للقيام بغارة جديدة جاءه نعي ولده ابي بكر سير ، وكان قد اقامه نائباً عنه في مراكش يدير امورها ، فاضطر الى الاسراع في العودة لتنظيم حكومته . إلا انه ترك الجيش الصحراوي في الاندلس برئاسة قائده سير بن ابي بكر ، فاستأنس ملوك الطوائف بعض الشيء ، وسرهم ان يبتعد الظافر عن ارضهم ، منصرفاً الى العناية بشؤون مملكته الافريقية ، فاستأنف بعضهم الغارات على الامارات الاسبانية والبرتغالية يعاونهم جيش المرابطين ، فكانوا ينجحون في مكان ويخفقون في مكان آخر ، ولم يخطر لهم في بال ان الفنس السادس ستقوم له قائمة بعد موقعة الزلاقة وقد خسر فيها نخبة فرسانه ومعظم جيشه وعتاده . ويقيناً لو اصابت هذه الكارثة رجلاً غيره لحطمت عزيمته

وقضت على مساعيه . ولكنها اصابت جباراً مريداً لا يسهل على الاحداث تدويخه واقعاد همّاته . فانه ما انفك ، منذ هزيمته المشؤومة ، يستنفر الاسبانيين والفرنسيين حتى تم له بعد عام حشد جيش عظيم في عدته وعدده ، فخرج به سنة ١٠٨٧ م مغيراً على الاندلس ، مخرّباً فيها ، مفتتحاً بعض مدائنها ، مهدداً ملوكها ولا سيما المعتمد بن عباد . وعبثاً حاول هؤلاء الامراء ان يدفعوا البلاء عن ديارهم ، وهم على تحاسدهم ، وطمع قويّهم في ضعيفهم ، لا يخلصون النية للتعاون المشترك ، يتحالف منهم فريق ، ويتخلف فريق آخر . ولا يتلكأ بعضهم ان يكيد لبعض ، فكأن يوم الزلاقة أنساهم ما جر عليهم تفسخهم بالامس ، وكأن بُعد يوسف بن تاشفين اغفلهم عما يهددهم في الغد . وكان المعتمد اشدهم طموحاً الى بسط سلطانه والاستئثار بالنفوذ لاعتداده عليهم بالقوة واتساع الملك . فحدثته نفسه بخطة خرقاء لم يحسب حساباً لنتائجها . فرأى ان يعبر المضيق الى المغرب ويشرح لامير المسلمين احوال الاندلس وقعود امرائها عن حمايتها ، راجياً منه ان يوليه قيادة العساكر الصحراوية ، ليستطيع بها جمع الولايات وضم اشتاتها ومن ثم مقاومة الامراء المسيحيين . وفاته ان سلطان مراكش ينتظر هذه الفرصة لتحقيق رغائبه في الاستيلاء على الاندلس وجعلها من اعمال دولته . فعاد من عنده خائباً نادماً لان الزعيم المرابطي يريد ان يحمل بنفسه عبء مجاهدة الاسبانيين ، ولعله تلقى رسائل من علماء الاندلس يستنجدونه لانقاذها ، فنشط يجمع العساكر ويدرّبها حتى تهيأ له جحفل كثيف ، فعبر به بحر الزقاق

الى الجزيرة الخضراء في حزيران ١٠٨٨ (ربيع الاول ٤٨١ هـ) ، وما وكده الامراء المسيحيون وحدهم ، بل ملوك الطوائف قبلهم . على انه لم يجد من الحكمة ان يناصبهم العداء فوراً فباشر الحرب اولاً مع الاسبانيين دون ان يدعوهم الى مساعدته ، ثم ارتد الى غرناطة فاحتلها واعتقل صاحبها عبد الله بن بُلكين بن باديس ، ونفاه الى اغمات قرب مراكش ، متهماً اياه بانه حليف لالفنس . ورأى ان الجيش المرابطي لا يكفي للقيام بحركات واسعة يزيل بها ملوك الطوائف ، فارتد الى سبتة واخذ يحشد العساكر ويجيزها الى قائده سير بن ابي بكر في غرناطة حتى اجتمعت له قوات جرارة ، فسيرها في اربع جهات لقتال المعتمد بن عباد ، والمعتصم ابن صمادح صاحب المرية (Almería) . وكان المعتمد يتوقع غارة المرابطين على مملكته ، ويستعد لها ، فهب الى مدافعتهم ، يخوض المعارك بنفسه ، ويبلي احسن البلاء . ولكن ما حيلته وجيشه ضعيف امام الفيالق الصحراوية الطاحنة ، فمن الجنون ان يغرر به ويتابع حرباً نتيجتها خاسرة . يعرف كل ذلك ، ويعرف ايضاً ان الحرب لا مهرب منها إلا اذا تنازل عن عرشه ليوسف بن تاشفين . وكيف له بالتنازل عنه ، وهو به ضنين ، يفضل ان تخرّق الرماح جثمانه وان يموت الجيش في مكانه على ان يخفض الرأس لابن الصحراء ! ترى بمن يستغيث ، والى من يفزع ؟ أيدعو ملوك الطوائف لنصرته ، وفيهم الحاسد الشامت ، من يسرّ بنكبته ، او الخائف المرتعش يشتغل بتحصين ارضه ولا يجرؤ ان يبادي الملثمين بالعدوان ؟ ما ابعد الامل عند ملوك الطوائف ، وما اقربه عند

الفنس عدوّه اليوم ، وحليفه بالامس ، فلماذا لا يهرع اليه بندائه ، وهو يشعر شعوره بخطر الغزاة الغرباء ؟ وما كاد صوت الاستغاثة يبلغ عاهل قشتالة حتى بادر الى نجدته باربعين الف راجل ، وعشرين الف فارس يقودهم الكونت غوميز (Gomez)، فالتقاهم المرابطون عند قرطبة فهزموهم بعد معركة دامية .

ولبث المعتمد يدافع عن اشبيلية دفاع اليائس المستميت ، باذلاً آخر ما لديه من القوى ، والمرابطون يأخذونه من كل جهة الى ان دخلوها عنوة في ايلول سنة ١٠٩١ (رجب ٤٨٤ هـ)، فاعتقلوه وساقوه واسرته الى اغمات . وسقطت المرية على اثر اشبيلية وزال عنها ملك المعتصم بن صمادح . ثم اناخ المرابطون على مُرسية (Murcie)، وافتتحوا دانية(Dénia) وشاطبة (Jativa)، وما زالوا يتقدمون من مدينة الى مدينة حتى انتهوا الى بلنسية وهي يومئذ في حكم القادر بن ذي النون . وكان الفنس السادس قد اقطعه هذه الامارة بدلاً من طليطلة التي انتزعها منه ، وجعله تحت حمايته يتقاضاه الجزية ويذود عنه اذا أعتدي عليه . فلما اغار المرابطون على بلنسية انضمت قوة من النصارى الى المسلمين تدافع معهم عنها ممتنعين بحصونها . ولكن المهاجمين استطاعوا ان يأخذوها في غير مشقة لان القاضي أبا احمد بن جحّاف المعافري فتح لهم ابوابها ، وامدهم بجماعة من اصحابه تسهل لهم امتلاكها ، لطمعه في الامارة وكرهه للقادر بن ذي النون صنيعة الاسبانيين . وكافأ المرابطون القاضي فجعلوه والياً على بلنسية من قبل سلطان مراكش ، فما كان منه إلا ان بادر الى الانتقام من القادر ، فما

زال يبحث عنه ويطارده حتى تمكن منه فقتله ثم انتهب قصره واستولى على امواله، فزالت بموته دولة ذي النون (١٠٩٢ م — ٤٨٥ هـ).

على ان سقوط بلنسية في ايدي المرابطين لا يعد خسارة للنونيين وحدهم، بل هو خسارة لالفنس السادس ايضاً، وبالتالي خسارة كبيرة للفارس الاسباني السيد رذريق (Rodrigue le Cid). فقد كان ملك قشتالة يعتبر بلنسية امارة تابعة له ولا ينظر بارتياح الى تقدم الافريقيين في الاواسط الشرقية من الاندلس حيث ينبسط نفوذه. وقد رأيناه يبادر الى نجدة المعتمد بن عباد لكي يستوقف زحف المرابطين ويقضي على حركاتهم في الجنوب قبل ان تتسع وتنتشر، فلم ينجح في مسعاته فاصطر جيشه الى التقهقر عن قرطبة مدحوراً. وراحت العساكر الصحراوية توغل في الجانب الشرقي ناهضة من مدينة الى مدينة حتى استولت على اكثر القواعد الحصينة هازمة امامها القوى الاندلسية واعوانها الاسبانيين، ومن بينهم الكونت رذريق وفرسانه الاشداء.

وكان هذا الفارس لا يقل حماسة عن اميره الفنس في مقاومة المرابطين ومصابرتهم، ولا يقل عنه غضباً لسقوط الولايات الشرقية لما له من النفوذ فيها، ولا سيما بلنسية التي بسط عليها سيادته وجعلها محط آماله ومدار مطامعه، سواء لديه أرضي مليكه أم سخط، فانه من اولئك الابطال المغامرين الذين يتعشقون الشهرة، ولا ينكصون عن طلبها مهما يقم دونها من الاهوال. وقد كان الفنس ناقماً عليه حتى انه نفاه عن قشتالة، وازال ما به من نعمة سابقة.

فما زاده النفي والاضطهاد إلا عزماً واقداماً . فبنى مجده بذكائه وحد سيفه على كره من العاهل القشتالي ، وباءت بالخيبة كل محاولة قام بها الفنس لخذلانه واخراج بلنسية من يده . وجدير بنا ان نلم بطرف من حياة السيد واخلاقه قبل ان نتحدث عن مواقعه في بلنسية مع المرابطين لتنجلي للقراء تلك الشخصية التي بلغت من سيرورة الذكر ما لم يبلغه الفنس السادس نفسه . فقد تغنى ببطولتها الشعراء والمنشدون ، ونسجت حولها الروايات والاساطير فكانت غذاء للادب الاسباني في القرون الوسطى ، وغذاء من بعده للشاعر الفرنسي كورناي في مسرحيته الخالدة « السيد » .

هـذا الفارس القشتالي يمثل فروسية عصره اصدق تمثيل بفضائلها وعيوبها ، أوتي من القوة البدنية والشجاعة والاقدام واستهانة الموت ما يصح ان توسم به عصور البطولة . وساعده ذكاؤه وقوة ارادته على التبصر في الامور وتصريفها والنظر في عواقبها . كانت فروسيته تقترن بالتدين وحرارة الايمان ، يصوم ويصلي ، ويعنى بالحفلات الدينية ، ويقدم الهدايا للكنائس والاديرة . فهو على خلاف ما تصوره المستشرق دوزي اذ جعله لا دين له ولا شرع . فان روح الدين كانت اكبر محرك لنفوس الفرسان في عصره ، بسبب الحروب الصليبية التي امتدت من الغرب الى الشرق . ولعل دوزي نفى عنه العقيدة المسيحية لكثرة ما اقترف من الجرائم والفظائع التي يستنكرها الدين وينهى عنها ، او لعله يرمي الى تقلبه في السياسة الوطنية فحيناً يحارب المسلمين مجاهداً ، وحيناً يضع سيفه في خدمتهم لينصرهم على المسيحيين ، وفي كلا

الحالين لو عاد المستشرق بالسيد الى عصره لما وجده غريباً عنه . فاحراق القاضي بن جحاف حياً ، والتمثيل بالاسرى او القاؤهم الى الكلاب الضارية ، كلها اعمال وحشية بحد ذاتها ، تنفر منها النفس الانسانية في صفائها . إلا ان رذريق لم ينفرد بها عن غيره ، فانما هي من عيوب فروسية العصر ، وتاريخ الاندلس حافل بامثالها وبابشع منها ، وتقترن على الغالب باحوال خاصة كدافع الانتقام ، او الحاجة الى الارهاب . ولا يصح في ما عدا ذلك ان نجرد السيد من الشعور الانساني ، والعاطفة المهذبة تجريداً تاماً ، وفي اخباره ما لا يسمح لنا بهذا الحكم الجازم ، كخبره مع المرأة النفساء ، ذكره لويس برتران في كتابه تاريخ اسبانية ، وهو ان السيد عندما نفاه الملك سار بفرسانه وخدمه هائماً بين قشتالة وسرقسطة . فذات يوم امر بان تقوض الخيام للرحيل ، فما كادت تطوى وتحمل حتى سمع بعض رجاله يقولون ان زوجة طاهيه قد وضعت في تلك الساعة . فسألهم حالاً : كم تلزم سيدات قشتالة السرير عادة بعد الولادة ؟ فأعلموه . فقال : ادن نبقى هنا طول هذه المدة ، فلتنصب الخيام .

وبقي السيد في مكانه لا يتحرك منه حتى نهضت زوجة الطاهي من فراشها ، مع ان الخطر كان محدقاً به ، لانتشار الاعداء وتسربهم في تلك الاصقاع .

وكذلك تقلبه في السياسة الوطنية لم يكن غريباً في نوعه عندهم . فان تاريخ اسبانية يحدثنا عن كثير من الفرسان المسيحيين والمسلمين كانوا يفعلون فعله ، مدفوعين بحب المال

والشهرة ، او شهوة الانتقام ، او روح المغامرات ، الى محاربة ابناء ملتهم في صفوف اعدائهم ، والكونت رذريق فيه جشع كبير الى المال والشهرة وكانت شهوة الانتقام تحفزه الى طلب المعالي بعد ما فقد حظوته عند الفنس وأبعد عن بلده . وهو الى ذلك لا تنقصه روح المغامرات ، واسبانية يومئذ في حالتها السياسية المضطربة ، وما يهددها من الخطر الشامل لتصارم ولاياتها ، وتباغض حكامها ، تفرض على الامراء المسلمين والمسيحيين ان يجتمعوا في مواطن مختلفة متحالفين مع ما بينهم من حروب ازلية وعداء قديم ، على ما في هذا التحالف من تكافؤ او غير تكافؤ ، كما حالفت بلنسية وسرقسطة قشتالة ، وكانتا في الوقت نفسه تؤديان لها الجزية ، وتعتمدان على مساعدتها اذا نزل بها عدو مغير . فغير عجيب ان يقاتل السيد في صفوف حلفاء قومه وان كان العدو الذي يقاتله من المسيحيين ، او ان يقاتل في غير صفوف حلفائه وهو حاقد على اميره ، مغامر باسل يطمح الى المجد ويطمع في المال ولديه جيش خليط من المرتزقة لا يقوم على المسيحيين وحدهم بل فيه عدد عظيم من الفرسان المسلمين . واذا عدنا الى اخباره اول حياته نجده مع حبه للمال وسعيه الى جمعه لا يجرد حسامه إلا في سبيل اميره .

ولد هذا الفارس في قرية بيفار (Vivar) على مقربة من برغش (Burgos) نحو سنة ١٠٤٥ م يكتنفه النسب الكريم من ناحية ابيه دياغو او دياز (Diego ou Diaz) سليل كالفو (Calvo) بعض كبار القضاة في قشتالة . ثم من ناحية امه التي

تنتمي الى اسرة كبيرة في اشتوريش (Asturias) ، وكان والدها صـــاحب اقطاعـــات في الوادي الجوفي [١] ، اي وادي دويرُه (Duero) . والظاهر ان دياغو توفي والغلام في نحو الثالثة عشرة مـن سنيه على حد تقدير لاوي بروفنسال اذ يجعل وفاته سنـة ١٠٥٨ ، فورث رذريق املاكه ، ثم اتصل بالدون شانجه (Sancho) بعد ما قسم فرديناند مملكته بين اولاده الثلاثة ، فأتيح له ان يتأدب بادب القصر شأن ابناء الامراء ، وقلده شانجه رتبة الفروسية ، فحارب معه سنة ١٠٦٣ مناصراً المقتدر بن هود ملك سرقسطة على الارغونيين ، فكانت اولى معاركه بجانب المسلمين على المسيحيين .

فلما نشب الخلاف بين الاخوة الثلاثة ، وقـام الواحد منهم ينازع الآخر نصيبه من ملك ابيه ، وقعت بينهم حروب اهلية ، فقـاتل الفتى رذريق تحت لواء شانجه ، حتى تم النصر لاميره ، فكافأه على بلائه بمنصب رفيع في القصر ، واناط به قيادة الجيش ، وصاحبها يعرف بصاحب العلَم (Alferez) ، ولُـقب بالكمبيادور (Campéador) اي القائد الاعلى ، او رئيس الغزوات ، على رأي لاوي بروفنسال ، ويسميه المقري في نفح الطيب القنبطور ، ويعرف ايضاً عند مؤرخي العرب بصاحب الفحص [٢] . والمراد به الرئيس

١ الحوفي : اي الشمالي في اصطلاح المغربيين .

٢ الفحص : بالمغرب من ارض الاندلس مواضع عدة تسمى الفحص . قال ياقوت : « وسألت بعض اهل الاندلس ما تعنون به ؟ فقال : كل موضع يُسكن سهلاً كان او جبلا بشرط ان يزرع نسميه فحصاً ، ثم صار علماً لعدة مواضع . امـا في لغة العرب ، فلفحص شدة الطلب خلال كل شيء . »

الموكول اليه امر الغارات على فحوص الاعداء ، وانتساف زروعها . غير ان حياته في القصر لم يكن من شأنها ان تمنحه الشهرة التي اعدتها له الاقدار مع كثرة الحروب التي شهدها في عهد مليكه . ثم اغتيل شانجه في حصار زمورة (Zamora) الثائرة عليه سنة ١٠٧٢ ، واتهم بمقتله اخوه الفنس ، وكان هذا قد نفاه شانجه الى طليطلة ، فرجع الى مملكته لاون واعتلى عرشها ، واراد ان يضم اليه قشتالة نصيب اخيه المقتول ، فتمنع القشتاليون عن مبايعته او يقسم على براءته من دم اخيه ، فرضي الفنس ، وذهب في جماعة من اشراف قشتالة الى كنيسة شانتا غادية (Gadia) في برغش لتأدية اليمين ، فلم يجرؤ احد منهم على تحليفه سوى الكونت رذريق ، فحقد عليه ، ولكنه كان يتقي جانبه لما يعلم من بطشه ودهائه . فآثر ان يأخذه بالدين على ان يجاهره العداء ، وان تكن هذه الظواهر لا تخدع الفارس الذكي ، فتزيل من نفسه الريبة بعاهله الجديد . فقد رأى حيراً له ان يتخلى عن منصبه في الجيش ، ويترك القصر ، دون ان يخرج عن طاعة الفنس ، او يقطع صلة التابع بالمتبوع .

وكان لالفنس ابنة عم يقال لها الدونا لمانا دياز ، وتعرف بشيمانة ، وهي بنت دياغو بن رذريق كونت اوفيادو ، وحفيدة الفنس الخامس ملك لاون ، فشاء ان يزوجها برذريق ليجمع بهما اشراف لاون وقشتالة ، ويزيل ما بين البلدين من العداء ، فقبل الفارس القشتالي عروسه اللاونية من يد مليكه بعامل السياسة ، لا بدافع الحب الذي يصوره

كورناي في مسرحيته ، ويجعل منه صراعاً عنيفاً بين العاطفة والواجب في نفس البطل العاشق ، ثم في نفس معشوقته . فوالد شمانة لم يلطم والد السيد ، وهذا لقي حتفه من عهد بعيد ، ولا رذريق اضطر الى قتل والد شيمانة ، وانما تم الزواج بينهما في جو هادىء ، لا تلوح فيه بارقة وجد ، ولا عاصفة التياع . وهذا لا يمنع ان يكون الزوجان تبادلا المودة والاخلاص مع طول الالفة ، كما يحصل عادة بين الرجل والمرأة ، اذا اقترنا ، وقلباهما خليان من حب او كره .

على ان هذا الزواج لم يُعد الى رذريق سابق حظوته في القصر ، فما لبث ان رجع وشيمانة الى قريته بيفار لا يخرج منها إلا اذا دعاه اميره لبعض المهمات . وكان الفنس يوفد كل سنة بعثة الى طليطلة واشبيلية لاستئداء الجزية من الدولتين الاسلاميتين ، فأوفد السيد الى اشبيلية في اواخر سنة ١٠٧٩ ليأخذ الجزية من صاحبها المعتمد بن عباد ، فلما بلغها رأى الحرب دائرة بينها وبين الغرناطيين ، وعلى غرناطة يومئذ الامير عبد الله بن باديس بن زيري ، وقد امده الفنس بنجدة من الفرسان الاسبانيين تنصره على المعتمد ، لانه لم يكن مطمئن النفس اليه لانبساط ملكه بين ملوك الطوائف ، وطمعه في التوسع ؟ وكان قائد الحملة الاسبانية الكونت غرسيه اوردونه ، عدو رذريق ومنافسه ، فخاض السيد المعركة بجانب الاشبيليين ، محتجاً بانهم حلفاء مليكه الفنس ، فهزم العساكر الغرناطية ، واسر جماعة من الاشراف المسيحيين بينهم غرسيه ، ولم يطلق سراحهم ألا بعد ثلاثة ايام فقفلوا الى بلادهم مذلولين

منكسي الرؤوس . وتقاضى رذريق الجزية من ابن عباد ، وحملها الى قشتالة سنة ١٠٨٠ .

فغير عجيب ان يكون له من غرسيه واعوانه خصوم يناصبونه العداء ، ويكايدونه في السر والعلانية حتى اوغروا صدر الفنس عليه ، فبات يتحين الفرص للنيل منه ، واضعاف شأنه . فاتفق ان اغار السيد على طليطلة ، دون استئذان سيده ، فاثخن واوجع ، وعاد بالاسرى والغنائم ، فثار ثائر الاشراف القشتاليين لاستقلاله بالامر ، وصغى اليهم الفنس ، وبدا له ان يطرده من اراضي قشتالة ، ففُتحت له ابواب المجد في منفاه .

ولم يسلم سبب طرده من الالتباس والخلاف فيه ، فمنهم من يرجعه الى حقد الملك عليه من اجل اليمين التي لقنه اياها في كنيسة برغش ، ومنهم من يعود به الى غارته على طليطلة وايقاعه بحلفاء عاهله ، او الى طمعه في الثروة ، وانه اخذ مالاً كثيراً من المعتمد بن عباد . ويتفق لويس برتران والمستشرق الالماني جوزف اشباخ على القول بان فارساً ممتازاً عظيم الكبرياء كثير المطامع مثل السيد لا يرضى ان يظل مغموراً في كنف ملك يبخسه حقه ويغار منه . فهو لا بد ان يختار هذا النفي بنفسه ، ويقصد اليه قصداً إلّم يفرض عليه ، ليسعى وراء الشهرة التي يتعشقها ، ويبني عليها قصور احلامه .

ومهما يكن من شيء ، فان رذريق هجر موطنه نحو سنة ١٠٨١ ، مبقياً زوجه واولاده في بيفار ، وسار برجاله الى برشلونة عارضاً سيفه على اميرها رامون بيرنغر الثاني (Berenguer)

فلم يجد عنده قبولاً ، فتركه وولى وجهه شطر سرقسطة ، فاتصل بصاحبها المقتدر بن هود وكان حليفاً لالفنس فاحسن وفادته . وتوفي المقتدر في السنة نفسها ، فانتقل الحكم من بعده الى ولديه المؤتمن والمنذر فولي الاول سرقسطة واعمالها ، والثاني دانية وطرطوشة (Tortosa) ولاردة (Lérida) ثم نشب الخلاف بينهما ، فاستنجد المنذر كونت برشلونة وملك ارغون مستنصراً بهما على اخيه فامداه بالعساكر . فخرج اليهم رذريق بفرسانه وفرسان المؤتمن فاشتبك واياهم في معارك دامية كتب له النصر فيها ، فانهزموا امامه ، فطاردهم واناخ على بلادهم فدمر واتلف ونشر الروع بين المسيحيين والمسلمين . ويروى انه اسر يومذاك بيرنغر كونت برشلونة ، وكان هذا قد نذر دمه ، فابى الا ان يقابله بالاحسان ، معاملة الفارس الشريف لصنوه ، فاطلق سراحه دون ان يطلب منه الفداء . ثم رجع الى سرقسطة تظلله رايات المجد والظفر فاستقبلته المدينة هاتفة له ، وانزله المؤتمن منزل الكرامة ، وصار المسلمون حلفاؤه يلقبونه بالسيد من ذلك الحين . غير ان لاوي بروفنسال يقول ان لقب السيد ليس له ذكر في الروايات المسيحية القديمة ولا في الروايات العربية ، وانما يذكر لقب القنبطور . وفي ذلك ما فيه من الشبهة كما لا يخفى .

ولم يطل حكم المؤتمن فأنه توفي سنة ١٠٨٥ فخلفه ابنه المستعين مترسماً خطة ابيه في إكرام السيد والاعتماد على سيفه وخبرته ، الا ان الفارس القشتالي لم يهجر بلاده ليكون تابعاً

لامير غير اميره بل ليحقق احلامه ، واي احلام تراوده سوى الامارة والسلطان ؟ فرمى بعينيه الى الولايات المجاورة يتفحصها فوجد بلنسية اقربها منالاً واحكمها موقعاً ، فالقادر بن ذي النون ضعيف لا قبل له بالدفاع عنها ، فانقض عليها بفرسانه فافتتحها ، والظاهر انه كان على اتفاق مع المستعين ، ولم يشأ ان يخلع القادر بل استبقاه مراعاة للمسلمين ، ووضعه تحت حمايته . وارسل في الوقت نفسه الى الفنس السادس يبايعه على الطاعة ، لئلا يثير حفيظته ، وبلنسية معدودة في جملة الامارات الخاضعة لمملكته . ومن الطبيعي ان لا يرتاح الفنس الى عمل السيد واستبداده بامارة حليفه وتابعه ، وهو ناقم على هذا الفارس الطريد فكيف يأمن جانبه اذا قويت شوكته في بلنسية وما جاورها ؟ وقد كان حقيقاً به ان يرميه بحملة تأديبية تنزع بلنسية من يده ، وتحرر القادر من سلطانه ، الا ان الاحداث الخطيرة التي طرأت على الاندلس اضطرته الى التغاضي عنه ، ذلك ان المرابطين اخذوا يتقدمون في الولايات الجنوبية والشرقية ناثرين تيجان ملوك الطوائف ، مغيرين على الاراضي الاسبانية . فالخطر الداهم اعظم من ان يحمل الملك القشتالي على التفكير في محاربة السيد ومعاقبته ، وقد تكون الاستفادة من سيفه في مثل هذه الاحوال اولى وانفع . ولم يخطىء الفنس في حدسه ونظره الى الامور ، فان السيد نفسه كان يشعر شعور مليكه ، وتساوره المخاوف من زحف المرابطين وانتصاراتهم الصاعقة ، فاذا بهذا الشريد المغامر يصبح بطلاً قومياً لا هم له الا ان

يرد الاعداء الغرباء عن بلاده ويحول دون تجدد النكبات التي شهدتها اسبانيا المسيحية في اوائل الفتح . ومن هنا تبتدىء حياته الوطنية اللامعة تتغنى بذكرها وتخلدها القصص والقصائد والاناشيد .

دخل المرابطون بلنسية والسيد غائب عنها ، فارتد اليها عندما بلغه الخبر ، وهو مصمم على استرجاعها ، مهما كلفه خطبها ، ليجعل منها قلعة حصينة في وجه الملثمين تمنعهم من التوغل في الولايات الاسبانية ، فنشط الى تحصين القلاع الجبلية المحيطة بها وتعزيز حامياتها . ودعا الى محالفته الامراء المسلمين في السهلة وشاطبة ودانية ومربيطر (Murviedro) فلبوا الدعوة لما يضمرون من الكره للمرابطين . ثم ضرب الحصار على المدينة بجيش لهام من النصارى والمسلمين ، فصبرت بلنسية عليه مدة طويلة تقاوم الجوع يائسة لان المرابطين الذين جاؤوا لنجدتها هزموا وشتت شملهم . فثار الشعب اخيراً على القاضي جعفر بن جحّاف حاكمها الجديد واجبروه على التسليم ، فلم يجد مناصاً من مفاوضة رذريق على شروط تضمن السلامة له ولاسرته ولسكان المدينة اجمع . فقبل السيد هذه الشروط ، وفتحت له بلنسية ابوابها في ايار سنة ١٠٩٤ فدخلها دون ان يتعرض لاحد باذى . وخطب فيهم فقال :

« جعلت لكم يومي الاثنين والخميس موعدين لسماع مطالبكم . فمن كان له حاجة معجّلة ، فبوسعه ان يدخل عليّ متى شاء ، فاسمع له ، لاني لن احتجب عنكم كما كان يحتجب ساداتكم مع

النساء للشراب والسماع . وانا اقضي بنفسي في اموركم ، فأكون لكم حامياً وصديقاً ، وقاضياً ووزيراً . واذا شكا اي احدكم الآخر ، حكمت بالعدل بين الخصمين . »

ويقول ابن بسام ان القنبطور ترك ابن جحاف على القضاء نحواً من عام ، ثم اعتقله واهل بيته وقرابته وجعل يطالبهم بذخيرة القادر بن ذي النون ، فانكر القاضي ان يكون لديه شيء منها ، فهدده السيد بالقتل ان كان كاذباً ، وهو يعلم انه قد استولى عليها بعد مقتل القادر ، وفي جملتها عقد زبيدة « حُمَة العقرب » وكان من الزمرد والماس والياقوت ، قيل انه كان لزبيدة زوج هارون الرشيد ، فنهب يوم مقتل الامين ، وانتقل الى الخليفة الاموي في الاندلس عبد الرحمن الثاني . ثم صار بعد سقوط الدولة الاموية في قرطبة الى الدولة النونية ، فحمله القادر من طليطلة الى بلنسية ، فلما قتل استحوذ عليه القاضي ابن جحاف ، ثم امتلكه السيد ، وبقي في حوزته حتى مات ، فأخذته شيمانة معها الى قشتالة . ويقول مينانذز بيدال ان عقد حمة العقرب كان بخزانة قشتالة في القرن الخامس عشر ، فأثار شهوة الشريف الفارو اولينا ، فعدا عليه . وعثر الملك جوان الثاني على هذه الحلية سنة ١٤٥٣ تحت عمود من اعمدة القصر الملكي في مدريد ، ثم ضاع اثرها ، فلم يسمع بذكرها بعد هذا التاريخ .

وقيل ان ابن جحاف عرض على السيد هدية من ذخائره ، فردها عليه ، ولم يأخذها منه . فاوجس القاضي شراً . ثم امره ان يبين في كتاب ما لديه من المال والحلى والجواهر ، وان لا يخفي

شيئاً عنه . فوعده بذلك ، ولكنه اخلف الوعد ، وابقي الذخيرة مطمورة في الارض . ويقول المقري صاحب نفح الطيب : « فاتفق انها وجدت عند القاضي ، فأمر به فأحرق حياً . »

على ان الذخيرة لم تكن السبب الوحيد الذي حمل رذريق على قتل ابي احمد بن جحاف ، فهناك اسباب اخرى جعلته يحقد عليه ، ويُرصد له الشر ، منها اغتياله لتابعه القادر بن ذي النون ، واقفاله المدينة في وجهه ، وحجزه عنه ما اودع من الحنطة فيها ، واستنجاده المرابطين عليه ، وتلونه في المفاوضات حيناً معه ، وحيناً معهم ، حتى ادى الامر الى حصار طويل ، أخره عن دخول بلنسية ، وأضر بسكانها ضرراً بليغاً ، لما اصابهم من الجوع الغاشم حتى اكلوا جلود الحيوانات .

ويقول ابن بسام ان رذريق كان قد هم باحراق زوجة ابن جحاف وبنيه معه ، فضج المسلمون والمسيحيون معاً ، ورغبوا في ترك الاطفال والعيال ، فأجاب رذريق سؤلهم بعد جهد شديد . وأضرمت نار عظيمة في ساحة بلنسية كانت تلفح الوجوه على مسافة بعيدة ، وجيء بالقاضي ابي احمد يرسف في قيوده ، وقد احتفر له حفرة ، فأدخل فيها الى حُجزته ، اي وسطه ومعقد ازاره ، وسوي التراب حوله ، وضمت النار نحوه . فلما دنت منه ولفحت وجهه قال : بسم الله الرحمن الرحيم ! وقبض على اقباسها ، وضمها الى جسده ، ليقصر مدة عذابه .

ثم اختار رذريق لبون بن عبد العزيز والياً من قبله على بلنسية ليستأنس به المسلمون . واقام هو في قصر القادر يعنى

باصلاح امارته وتدبير شؤونها، منصرفاً اليها بكل قواه. قال فيه احد المؤرخين انه احبها كعشيقة له. ومع ذلك لم يغفل عن امرأته واولاده، فاستقدمهم من بيفار. ولبث نحو خمس سنوات يقاوم المرابطين، ويمنع تقدمهم في امارته، فما ينالون منها منالاً، ولا يستطيعون الايغال في الولايات الاسبانية، حتى اصابته الحمى وثقلت عليه الجراح القديمة. وبلغه، وهو على هذه الحال، مقتلُ ولده دياغو في جيش الفنس، وانهزام فرسانه امام ابن عائشة قائد المرابطين في سنة ١٠٩٧، فآلمه الخطب، واشتد عليه المرض، حتى نهك قواه، واودى بحياته في تموز سنة ١٠٩٩.

وكانت الجيوش الصحراوية لا تنفك تهاجم المدينة، فأبت الاميرة شيمانة ان تتخلى عن تراث بعلها، فظلت تدافع المرابطين زهاء ثلاث سنوات، وقائدهم مزدلي يشد الخناق على بلنسية. فلما ضاق ذرعها بعثت اسقف المدينة جيروم ذي بيروغورد تستنجد بابن عمها الفنس، فخف اليها ملبياً. ورفع المرابطون الحصار عن بلنسية عندما عرفوا بمجيئه. فدخلها دون ان يلقى مقاومة. ولكنه وجد ان الدفاع عنها يرهق جيشه على غير جدوى، فلم يشأ ان يبقيه فيها عرضة لهجمات الملثمين. فأمر شيمانة بالجلاء عنها، فأطاعت مكرهة، وعادت برجالها مع الجيش الى قشتالة، حاملة رفات زوجها رذريق (ايار سنة ١١٠٢)، بعد ما انتُهبت بلنسية وأحرقت، فدخلها مزدلي، وهي على تلك الحال.

وبموت السيد تطوى صفحة جليلة من تاريخ الاندلس العربية، فان ولاياتها اصبحت خاضعة لمراكش، تابعة ليوسف

ابن تاشفين الزعيم المرابطي ، بعد نضال طويل اشترك فيه امراؤها وامراء اسبانية المسيحية ، ليطردوا الغريب من بلادهم ، فلم يستطيعوا الى ذلك سبيلاً .

يوم سرقسطة

ما كان طبيعياً ان تظل سرقسطة امارة اسلامية مع تطرفها في الشمال الشرقي على نهر ابره (Ebre) وقد سقطت قبلها طليطلة في ايدي الاسبانيين ، فجعلت نهر التاج فاصلاً بينها وبين الولايات الاندلسية المسلمة ، حتى اصبحت في شبه عزلة عن ابناء جلدتها تستنجد في ضنكها ملوك الطوائف وتستنفر امير المرابطين وقد اخذها الفنس السادس بالحصار اخذاً شديداً ، فما رده عنها إلا نبأ جاءه عن يوسف بن تاشفين وامراء الاندلس بانهم زاحفون اليه في جموع جرارة ، فبادر نحوهم قبل ان يبلغوا طليطلة والتقاهم في بطليوس حيث دارت عليه معركة الزلاقة بشؤم الطالع (١٠٨٦ م) فانكفأ منهزماً الى عاصمته في فلول من جيشه المكسور ،

فاستطاعت سرقسطة عندئذ ان تتنفس الصعداء، وتستعيد سلطانها على الولايات التي انتزعت من يدها، ولم يكن لها قِبَل بالدفاع عنها. ولكن لم يطل الامر حتى ساورها خطر جديد من ناحية ارغون لا يقل هولاً عن الخطر الاول، فان اميرها شانجه بن رذمير (Sancho Ramiro) اغار من جبال البرنات (Pyrénées) بعشرين الف مقاتل على نهر ابره فتصدى له المستعين بن هود صاحب سرقسطة يدافعه بظاهر وشقة (Huesca)، وقيل ان السيد رذريق الفارس القشتالي حارب مع المسلمين في هذه الموقعة وكان يومئذ ضيف المستعين بعد ان نفاه الفنس السادس من قشتالة. إلا ان النصر حالف الارغونيين فانهزم امير سرقسطة في جيشه ودخل وشقة محتمياً بقلعتها الحصينة، فضرب المسيحيون حولها آلات الحصار، وشدوا عليها الخناق ليكرهوها على الاستسلام، فصبرت باسلة، ودافعت انبل دفاع لقي منه الارغونيون ضيماً وخسراناً، واصيب فيه شانجه بسهم قاتل اودى بحياته (١٠٩٣). ومع ذلك فالحصار ما برح على شدته وضغطه، وتمكن الغزاة في الوقت نفسه من افتتاح مدينة افراغة (Fraga) والتغلب عليها، فلم يبق من سبيل للمستعين إلا ان يفزع الى حليف يناصره، وينفس الكرب عنه. فرأى ان يحالف عدوه الفنس السادس لما يعلم من تفسخ الامراء المسيحيين ثم من استياء صاحب قشتالة لتوسع مملكة ارغون. وقد تعودت سرقسطة لتطرف امارتها ان تؤدي الجزية لملوك قشتالة، وتحالفهم على الاعداء الذين يهددونها من قطلونية وارغون والبشكنس (Basque)، فقد رأينا السيد

رذريق يلجأ اليها لان اميرها ابا جعفر المقتدر ومن بعده ابنه المؤتمن والد المستعين كانا حليفين لفردينان الاول ثم لولده الفنس السادس، فغير عجيب ان يحذو الابن حذو ابيه وجده فيحتمي بعاهل قشتالة في الملم العصيب.

وكان الفنس قد استأنف اهبته ونشاطه بعد كارثة الزلاقة، فخرج سنة ١٠٨٧ يثخن في الولايات الاندلسية، مستنزلاً امراءها عن قواعدهم وحصونهم. فعاد هؤلاء الى استصراخ يوسف بن تاشفين، فعبر اليهم سنة ١٠٨٨ ينثر التيجان عن رؤوسهم، ويبسط يده على اماراتهم. وافتتحت جيوشه بلنسية سنة ١٠٩٢ فأزالت عنها كلمة النونيين، وهي تحت حماية السيد رذريق يومئذ، تابعة لمملكة قشتالة، وقد رأينا الفارس الاسباني يخف لانقاذها برجاله وحلفائه المسلمين، حتى استردها سنة ١٠٩٤. لذلك لا يصح قبول الرواية التي تزعم انه حارب ملك ارغون سنة ١٠٩٣ منتصراً للهوديين، لانه كان منصرفاً في تلك السنة الى تحصين القلاع الجبلية المحيطة ببلنسية، ثم الى السعي لمحالفة الامراء المسلمين في السهلة وشاطبة ودانية ومربيطر.

وكما كان السيد مهتماً بصد المرابطين عن الولايات الشمالية خشاة ان يدخلوا اسبانية، فكذلك كان همّ الفنس السادس، فقد ازعجه توغلهم في الانحاء الجنوبية والشرقية، واستيلاؤهم على بلنسية، فنشط الى حشد الجيوش ليدفعهم عن بلاده اذا حاولوا الغارة على طليطلة. فلهذا لم يكن بوسعه ان يجيب نداء المستعين عندما استغاثه ملتمساً حمايته، واعداً بتأدية الجزية على

ان يمده بجيش يرد الارغونيين عن وشقة وقد بلغ منها الحصار اشده . فلما رأى المستعين ان الفنس عاجز عن مساعدته لاشتغاله بدفع الخطر الصحراوي عن مملكته ايقن ان لا فائدة من محالفته ، فنقض المعاهدة ، وولى وجهه شطر المرابطين مع علمه بما يجر تدخلهم من الخطر على امارته ، ولكنهم على علاتهم ابناء ملته . ولعله تمثل بقول المعتمد بن عباد : « رعي الابل خير من رعي الخنازير . » فأوفد ابنه عماد الدولة الى يوسف بن تاشفين في مراكش ، ومعه الهدايا النفيسة ، يخطب وده ويستعينه على الارغونيين ، فلم يتلكأ امير المسلمين عن محالفته ، وهو يعلم موقع سرقسطة ، وما يرجى من فائدته في مهاجمة الامراء المسيحيين لقربها من ممالكهم . ثم انه كان يؤثر ان تظل هذه الدولة المسلمة شجاً في حلوق الاسبانيين . فبادر الى انجاد وشقة بستة آلاف راجل والف فارس ، واعداً بمتابعة الامداد . وكتب الى امراء دانية وشاطبة والسهلة ، يهددهم ويدعوهم الى نصرة المستعين ، وطرد الارغونيين عن وشقة .

وكان عرش ارغون قد صار بعد وفاة شانجه الى الدون بدرو ولده الاكبر ، فتولى بنفسه قيادة الجيش ، ملتزماً حصار القلعة ، حتى اذا بلغه زحف المرابطين ومن انضم اليهم من العساكر الاندلسية رفع الحصار عن وشقة وخف الى لقائهم في الكرّازة ، فمزق جموعهم ثم ارتد الى وشقة ، فما انفك يحاصرها حتى سقطت في يده سنة ١٠٩٦ ، فجعلها قاعدة لملكه .

ويقول المستشرق الالماني جوزف اشباخ ان الحروب الاسبانية

بين المسلمين والنصارى اتخذت في ذلك العهد شكلاً صليبياً منظماً لان الكرسي الرسولي منع امراء اسبانية من الذهاب الى الشرق للمساهمة في انقاذ الاراضي المقدسة اسوة بغيرهم من الامراء المسيحيين ، مخافة ان تنتقص قواهم ، فيعجزوا عن القيام بقسطهم من الحرب الدينية في الغرب ، خصوصاً بعد ما اوغلت جيوش المرابطين في ولايات الاندلس وبات خطرها يحدق بالممالك المسيحية في اسبانية ان لم يكن بالممالك الغربية جمعاء . فهب الامراء الاسبانيون من كل جانب يدافعون العدو المغير على ثغورهم ، فاتسعت دوائر القتال ، وتعددت جبهات المعارك ، ففي كل ناحية تزهق ارواح ، وتغلي دماء . وكان ملك ارغون قد اطمعه سقوط وشقة فراح يوالي الغارة اثر الغارة ووكده سرقسطة دون سواها . بيد انها امتنعت عليه متمردة فردته خائباً يائساً سنة ١١٠١ . ثم ان المرابطين استردوا بلنسية سنة ١١٠٢ بعد موت السيد رذريق فأصبحوا مسيطرين على القسم الشرقي من البحر والبر ، يهون عليهم ان يتداركوا سرقسطة ويدرؤوا الخطر عنها . ثم رأوا ان وجودهم فيها اجدى نفعاً لهم اذا ارادوا الغارة على قطلونية وارغون فدخلوها على كره من المستعين سنة ١١٠٧ ، فنشبت بينهم وبين الارغونيين معارك متتابعة . وكان يوسف بن تاشفين قد توفي سنة ١١٠٦ وصارت الامارة بعده الى ابنه علي ، فحشد جيشاً عظيماً سنة ١١٠٨ عاقداً لواءه لاخيه تميم ، فزحف الامير المرابطي الى قشتالة يثخن فيها ، فاعترضته قلعة اقليش (Uclès) تستوقفه بحصونها المنيعة ، فاناخ عليها يحاصرها ويساور آطامها ،

فاصابها منه ضيق شديد . وكان الفنس السادس قد بلغ من كبر السن ما اقعده عن خوض المعارك ، فاشفق على قلعته ان تستخذي للاعداء ، فتفتح لهم الطريق ، فيتوغلوا في ارضه ، فأمر بان ترسل اليها نجدة قوية تنفس الكرب عنها ، ولو يستطيع لقاد هذه الحملة بنفسه ، وهو يعلم ما لوجوده من التأثير في اذكاء حمية رجاله . فخيل اليه ان يملأ هذا الفراغ بارسال وحيده شانجه وعمره يومئذ احدى عشرة سنة او خمس عشرة سنة ، على رأي لاوي بروفنسال ، فسار الغلام مع الجيش يصحبه مؤدبه الكونت غرسيه ، حتى بلغوا اقليش ، فالتحموا والمرابطين في معركة ثقيلة الوطأة عادت عليهم بالخسار والخذلان ، فقتل شانجه ومؤدبه ، وعشرون الفاً فيهم سبعة من قوامس (Comtes) قشتالة .

لا نحاول ان نحيط ما اصاب الفنس من الحزن الاليم عندما انتهى اليه نبأ اقليش . فحسبنا ان نتصور هذا الملك الشيخ يجر وراءه امجاد ثلاث واربعين سنة استوى فيها على العرش ، فاذا هو يمنى آخر حياته بكارثة لم تقتصر على انكسار جيشه ، واستسلام قلعته ، بل جاوزت ذلك الى الفجيعة بابنه الوحيد ، بقية أمله ، ووارث عرشه . وتقول الرواية الاسبانية ان شانجه لم يكن ولداً شرعياً فقد رزقه الفنس من حظيته ابنة المعتمد ابن عباد [١] ، وكان يحبه كثيراً لما بدا من نجابته على حداثة السن ، فخالف فيه القانون المرعي وجعله ولي عهده ، ومحط

١ هي كنة المعتمد لا ابنته . راجع موقعة بلنسية والسيد .

رجائه . فماذا يكون مصير تلك المملكة العظيمة اذا تركها ولا وارث من صلبه يجمع اجزاءها ، وهو لا يأمل ان يرزق ولداً بعد ان بلغ من العمر عتياً ؟

وقعت هذه الهموم ثقيلة على عاتق الشيخ الفاني فكاد يهوي تحتها لولا بقية حزم لم تنل منها عاديات السنين . فرأى ان لا سبيل الى بقاء العرش في سلالته الا بنقل ولاية العهد الى ابنته اوراكا . وكانت فتاة ذكية كثيرة المطامع ، تزوجت في العاشرة من عمرها بالكونت ريمون البورغوني . ثم توفي بعلها بعد ما رزقت منه غلاماً سمته الفنس باسم ابيها . غير ان الملك الشيخ خشي الا تستطيع ابنته حماية المملكة وحدها ، فآثر ان يزوجها ملكاً قوياً من انسبائه ، فوقع اختياره على ملك ارغون حفيد عمه راميرو . وكان بدرو قد توفي سنة ١١٠٥ وخلفه اخوه الفنس الاول ذاك الذي لقب بالمحارب لبسالته وغاراته المتلاحقة على ثغور المسلمين . ولم يغب عن والد اوراكا ما يتعلق بهذا الزواج من الخير لاسبانية اذ تصبح مملكة قشتالة ولاون وجليقية واشتوريش ومملكة ارغون والبشكنس دولة واحدة . فدعا مجلس النواب (Cortès) فانعقد في لاون حيث اجتمع الاساقفة والقوامس وحكام الولايات ورجال الدين والاشراف والفرسان وممثلو الطبقة الوسطى ، فقرروا ان تكون اوراكا وارثة مملكة قشتالة ولاون واشتوريش ، وان تزوج بالفنس الاول ملك ارغون ، حتى اذا لم ترزق منه ولداً عادت المملكة باجمعها الى ابنها الفنس البورغوني ، واعطي هذا عرش جليقية على ان يكون تابعاً لقشتالة .

وتوفي الفنس السادس سنة ١١٠٩ بعد ان اطمأنت نفسه الى نظام ولاية العهد، وأمن على عرشه من الانهيار، وما خطر له ان زواج ابنته بنسيبها ملك ارغون سيدفع البلاد الى فتنة حمراء. ذلك ان كلا الزوجين رضي الآخر بدافع المنفعة الشخصية لا بدافع الحب المتبادل، وان كليهما كان يريد ان يستأثر بالسلطة دون رفيقه، وفي نفسه من الطِماح والصلابة ما يأبى عليه ان يلين او يتنازل عن شيء من حقوقه، حتى بلغ التنازع بينهما الى النفور فالتباغض، ثم الى مجاهرة الخلاف والقطيعة. فطلبت اوراكا الطلاق متذرعة بموانع القربى، وراحت في الوقت نفسه تبسط يدها للعشاق مستنصرة بهم، مثيرة غيرة بعلها لتحمله على قبول الطلاق.

واشتهرت روايتها الغرامية فباتت سمراً للناس ولا سيما صلتها بالكونت غومز. وكان الفنس يتألم في كبريائه من سلوك زوجته ويزداد سخطاً عليها. غير انه رأى من الحكمة ان يرفض تطليقها حفاظاً على حقوقه في مملكة قشتالة، وان يعمد الى تدبير جازم يضع حداً لنفوذها وتهتكها. فأمر باعتقالها بعد ان جعل حصون طليطلة في حراسة جنوده الارغونيين. الا انها تمكنت من الفرار واخذت تدس لزوجها وتؤلب عليه الانصار من قشتالة ولاون واشتوريش، فنشبت في اسبانية حروب اهلية ادمتها عدة سنوات، وخاض غمارها الفنس بن اوراكا منازعاً امه من جهة والفنس المحارب من جهة اخرى... على انها كانت تتوقف حيناً بعد آخر ليردوا غزاة المرابطين عن بلادهم او لغيروا على ثغور الاندلس.

ولبثت اسبانية قلقة لا تستقر على حال حتى يئس الفنس المحارب من خضوع قشتالة، فسكت عن المطالبة بحقوقه مكتفياً بلقب قيصر اسبانية اسوة بالفنس السادس. وكان الحبر الاعظم قد اقر فسخ الزواج بمانع القرابة، فانفصلت اوراكا عن زوجها انفصالاً شرعياً. ثم ازال بسلطانه الروحي خلاف الام وولدها على ان يملكا معاً، فتم الصلح بينهما في اجتماع عقد سنة ١١٢٤.

وكان ملك ارغون مع اشتغاله بالفتنة الاهلية لا يفتر عن مجاهدة المرابطين ومنعهم من الايغال في بلاده. فقد اغار علي بن يوسف بن تاشفين على ولاية طليطلة فاستولى على طائفة من حصونها، وافتتح مجريط (مدريد) ووادي الحجارة (Guadalajara) وسواهما، ثم عاد الى مراكش وبقي قائده مزدلي يتابع بعده الغارات. فحدثت عدة مواقع في جهات مختلفة من الولايات الاسبانية رافق النصر في اكثرها المرابطين فافتتحوا عدداً من المدن والقلاع واتلفوا الحقول والمزارع، فأصيبت البلاد من جراء ذلك بقحط شديد ونالها من العناء ما اضيف الى ما تعانيه من حربها الداخلية التي انتفعت بها جيوش ابن تاشفين. ويقيناً لو ان المرابطين واهل الاندلس على وفاق خالص لكانت الفرصة يومئذ اسنح ما يرجى لاكتساح العدو والقصاء عليه. ولكن امراء الاندلس كانوا ناقمين على الدولة الافريقية لاستطالتها على ولاياتهم، واغتصابها السلطة من ايديهم، فلم يولوها المعونة الصادقة بل ربما وجدت فيهم من يمالىء الاعداء عليها، فان امير سرقسطة عبد الملك بن هود ساءه ان يصبح المرابطون سادة في عاصمته

يعود الامر اليهم ، وهو ليس له امر . فانتقض عليهم غير ناظر في نتيجة عمله . كان شجاعاً كأبيه المستعين ولم يكن كأبيه ذكاء وفطنة ، فخرج من سرقسطة برجاله واهله فقصد الى حصن روطة (Roda) فامتنع به . ولو اكتفى بعمله هذا لهان الخطب ، ولكن مقته للمرابطين ضرب على عينيه غشاء من الغفلة فتورط في عقد محالفة مع الفنس المحارب ناسياً ان حليفه الجديد يطمع من زمن في امتلاك سرقسطة ليزيل عقبة كأداء تواجه مملكته ، وتحول بينه وبين حرية الملاحة في نهر ابره . وما كان ينبغي له ان ينسى ، والعهد قريب ، مهاجمة الارغونيين لعاصمته غير مرة وارتدادهم عنها خاسرين امام مزدلي قائد المرابطين ، بل ما كان ينبغي ان ينسى مقتل ابيه المستعين وهو يدافع عن حصن تطيلة (Tudela) سنة ١١١٠ ليمنع ملك ارغون من التقدم الى سرقسطة .

فلما تمت المعاهدة بين الاميرين زحفت جيوشهما متحدة الى المدينة فحاصرتها حصاراً شديداً واكرهت المرابطين على الخروج منها فتركوها سنة ١١١٧ (٥١١ هـ) بعد ما حاولوا استردادها تكراراً دون جدوى حتى تمزق جيشهم في المعركة الاخيرة التي اصطلى نارها الامير تميم .

وهنا تختم مأساة سرقسطة ، فان الفنس المحارب بعد ان بات بمأمن من خطر المرابطين عاوده الطمع في الاستيلاء على تلك القاعدة الحيوية لمملكته . فطلب الى حليفه ان يتنازل له عنها ، فكان جواب عبد الملك رفضاً ابياً ، واستعداداً للدفاع . على

ان ملك ارغون لم يكن يتوقع غير هذا الجواب ، فجاءه وهو على تعبية لمهاجمة المدينة ، فباغتها بجيشه قبل ان تأخذ أهبتها للقاء ، فنصب عليها آلات الحصار ، وواثبها بقسوة عاتية ، فقابلته بمثل شدته ، وصبرت للحصار صبراً شريفاً ، يتفق المؤرخون على التنويه بذكره ، مع انها لا تأمل نجدة تأتيها فتفرج الضيق عنها ، وليس لديها من المؤونة ما يكفيها لحصار طويل ، حتى اذا نشب الجوع يهددها وآضت المقاومة الى ضرب من الجنون فالانتحار ، اضطر عبد الملك الى طلب الصلح والتخلي عن عاصمته ، وهو في يقظة من الالم المرير لغفلته الحمقاء . فعاهده الفنس ان يضمن لاهل المدينة الامان على النفوس والاموال ، وان يترك لهم الحرية في اقامة شعائر الدين وشرائع التقاضي ، وان يخيرهم في البقاء او المهاجرة . ففتحت سرقسطة ابوابها في ١٨ تشرين الثاني ١١١٨ (٤ رمضان ٥١٢هـ) فدخلها ملك ارغون بعساكره محفوفاً برسوم الابهة والجلال . وفيما هو يحتل قصورها وثكناتها ، ويحول مسجدها الجامع الى كاتدرائية ، كان عبد الملك بن هود يشد اثقاله ويحمل امواله ويخرج في مأتم من اهله وحرسه الى حصن روطة ليتخذه مقراً . وهاجر بعده كثير من المسلمين ، فمنهم من اقتفى اثره ، ومنهم من قصد مرسية او بلنسية .

وجعل ملك ارغون سرقسطة عاصمة لمملكته كما جعل ملك قشتالة طليطلة من قبل ، فانهارت بها القاعدة الثانية من كبريات قواعد الاندلس العربية بعد ما لبثت اربع مائة سنة حصناً

ركيناً من حصون المسلمين ، وقذى في عين اسبانية المسيحية ، تعترض طريقها جاثمة على نهر ابره .

معركة الارك

كل امراء الاندلس كعبد الملك بن هود ساخطون على المرابطين ، يشتهون زوال دولتهم ، لا يحترسون من صفقة حمقاء يعقدونها على غرار سرقسطة ، توسلاً للخلاص من جفاة الصحراء ، شاء القدر المشؤوم ان يفزعوا اليهم في تفسخهم ، وخناق الاسبان يلتف على اعناقهم ، فما نفس يوم الزلاقة عن صدورهم حتى تهاوت التيجان عن الرؤوس ، وتداعى عليها استقلال شعب ما انفك منذ اربعة قرون ينافح الاعداء حرصاً عليه ، ويقرّب لهيكله الحرام غوالي الدماء . فاذا هم في ارضهم طعام مأكول ، ودولتهم ولاية في دولة الملثمين ، واذا مراكش عاصمة لقرطبة ام العواصم ، وحاضنة الخلفاء والملوك ، تنهى

وتأمر فتطاع ولا تُسأل ، وتعطى ولا تُحاسب . فان المرابطين ما تعودوا في عسفهم ، وعنف وطأتهم ، مجاملة وسماحاً . يسوقون اهل الاندلس سوق الغالب للمغلوب ، ومخاشنة البدو الغلاظ للحضر المتنعمين . يطاردون الفكر فما تطمئن اليهم فلسفة او منطق . ويبتعثون التعصب ، فكل مذهب الا مذهب مالك مضطهد مكروه . بالحيف والارهاب يأخذون الناس ، وآذانهم يفتحمون للدسائس والوشايات . دانت لهم الاندلس مستكينة للبطش والقوة ، فامتلكوها قادرين . ولكنهم عجزوا عن امتلاك القلوب . برابر غرباء ، لا روحهم روحها ، ولا عقيلتهم عقليتها . فيهم قسوة وصلابة واستبداد . فلبثت تمامل حاقدة تحت قبضتهم العاتية ، شأن كل امة مهيضة تعنو للمسيطر ما دامت له القوة ، حتى اذا آنست فيه الضعف افلتت غاضبة تطلب استقلالها المفقود . ويقودها الحقد ، مع ما بها من وهن العود ، الى التخلص من الغاصب على غير روية وهدى ، فتحالف دولة مخوفة الجانب ، تستنصرها وتستخلصها مغترة بما تجد عندها من العطف ولين المواعيد . ويتغافل اصحاب الحكم فيها عن الخطر الجديد في الحلف الجديد ، يتهافتون عليه عامهين ، وهم لو راجعوا قرارة نفوسهم لرأوا انهم لم يقعوا على اهون الشرين . بل حب التشفي من المتسلط القديم ، والامل المعقود على الموهوم من فضيلة التغيير ، يجعلهم يتعامون عن الخطر الاعظم ، لا يبصرون لديه الا خيراً وفرجاً ، فتمتد اليه الايدي داعية ، مستجيرة من الرمضاء بالنار ، لجوء امراء الاندلس الى ملوك

اسبانية متناسين مطامع قشتالة وارغون ، وتاريخاً صارخاً مخطوطاً بالدماء ، او كما لجأوا الى الموحدين يستقدمونهم ، وانما هم يستبدلون دولة افريقية ظافرة بدولة افريقية مغلوبة ، وينتقلون من استعباد الى استعباد ، لا يخطر لهم على بال ان يبحثوا في ذواتهم عن الداء والدواء بحثاً صادقاً مجدياً ، ليدركوا ان ما بهم من هزال ناشىء عن شقاقهم وتخاذلهم ، نتيجة مرض السيادة فيهم ، وعدوان قويهم على حرية الضعيف . فاصبح بعضهم يناصب الآخر او يخذله اذا واثبه عدو غريب . وربما حالف هذا العدو عليه ، لا يبالي ما يجر على بلاده وقومه من الهوان والدمار . فبين امراء الاندلس تبادل لا ينقطع من الطمع والحذر واضمار الشحناء ، مع ما هم عليه من الاستهداف الطبيعي لغزوات جيرانهم في الشمال والجنوب .

ومعلوم ان الممالك الاسبانية لا تقل عن الممالك الاندلسية تباغضاً وخلافاً . غير انهم كانوا يدفنون احقادهم الى حين عند تكالب الاخطار ، فيتهادنون او يتحالفون ليصرفوا قواهم الى مجاهدة اعداء الدين ، وان كان بعضهم لا يستنكف احياناً ان يحارب ابناء ملته في صفوف المسلمين . ويجدون عدا ذلك في الدول المسيحية المجاورة اعواناً يخفون الى نصرتهم رغبة في الجهاد او شهوة للغنائم ، لا طمعاً في الاستيلاء على بلادهم وازالة كلمتهم ، كما يطمع سلطان مراكش في التغلب على الاندلس ، فيستبد بشؤونها المرابطون ، ثم يستبد بشؤونها الموحدون .

وقد صبر الاندلسيون على حكم ابناء تاشفين زهاء قرن ، يقدمون

لهم الطاعة كرهاً ، ولا يحجمون ، اذا امكن ، عن خذلهم في محاربة المسيحيين حتى سقطت سرقسطة في يدي الفنس المحارب (١١١٨ م) ثم تلتها معارك اخرى افتتحت خلالها قلاع حصينة كان يعتصم بها الملثمون ، من بينها قلعة ايوب (Calatajud) اناخ عليها الفنس سنة ١١٢٠ ، فدافعه دونها الامير تميم ، ثم اضطر ان ينزل عنها بعد ما صُرع امامها عشرون الفاً من جنوده الاباسل .

فهذه الهزائم المتتابعة نالت من هيبة المرابطين ، واطمعت فيهم اهل الاندلس ، فاستهانوا الوثوب عليهم لاجلائهم واستعادة الحق المغصوب . وكانت قرطبة في رأس القواعد الاندلسية سخطاً وحنقاً ، يؤذي كرامتها جنف الصحراويين وغلاظتهم ، ولم يأنِ لها ان تنسى عزتها الملوكية والعرش الاثيل . فهبت ثائرة تضرب في وجه الحامية المرابطية ، وتريها المنايا الواناً ، حتى حملت علي بن تاشفين على ان يعبر الزقاق بجيش لهام ، فيخمد ثورتها بعد عناء .

ولكن ما حيلة المرابطين وقد تأذّن القدر بانهيار سلطانهم ، فتركهم غرضاً لسهامه ، فبينا هم يغالبون احرار الاندلس حيناً ، وغزاة الاسبان احياناً ، اخذت ثورة الموحدين تحتدم في المغرب ، فتستأثر بقواتهم ، وتشغلهم عن ضبط ولايتهم عبر المضيق ، ودرء الاعداء عنها . فان الدعوة التي اظهرها مهدي بني مصمودة محمد بن تُومَرت كانت بليغة التأثير ، سريعة الانتشار ، فتبعه خلق كثير ، فجند منهم عشرة الآف ، وقدم عليهم ابا محمد البشير احد صحابته العشرة ، وبعثهم لمجاهدة المرابطين ، فراحوا يغزون في بلاد المغرب ، وينكلون بالجيوش المرابطية (١١٦٢ م) حتى اوقعوا الذعر في القلوب . وما زال

الخطر يعصف من بلد الى بلد حتى شارف مراكش العاصمة ، فدافع عنها الملثمون مستبسلين مستميتين ، فتمكنوا من انقاذها ، وارتد عنها الموحدون خاسرين ، بعد ان قتل قائدهم ابو محمد البشير (١١٢٥ م) .

على ان انتصار المرابطين في مراكش لم يكن بوسعه ان يستر انخذالهم في الوقت نفسه ، امام الفنس المحارب ملك ارغون . فقد اغار هذا الامير المقدام على الولايات الاندلسية متكلاً على مساعدة « الفرقة الخامسة » من المعاهدين (Mozarabes) وهم النصارى المستعربون الذين يعيشون في الاراضي الاسلامية . فاستطاع ان يجتاب الاندلس من الشمال الى الجنوب عائثاً مخرباً ينسف الزرع والعمران ، ويزداد جيشه تضخماً كلما تقدم بما ينضم اليه من المعاهدين حتى بلغ البحر المتوسط . ثم عاد برجاله سالماً غانماً منتصراً . أفلا يكفي هذا وحده ان يؤكد للاندلسيين ضعف القوى المرابطية ، فيستهينوا بها ، ويذهب ما عندهم لها من الحرمة ، وهم الى ذلك يعلمون ان ثورة المغرب في ابان اشتعالها ، والملثمون ، كما يبدو ، عاجزون عن اطفاء نارها . فان هزيمة الموحدين في مراكش لم توهن عزيمة المهدي ولا صرفته عن دعوته الجريئة ، فعهد في قيادة عساكره الى عبد المؤمن بن علي ، موضع ثقته العظمى ، واحب صحابته اليه . فتمكن هذا من الايقاع بجيش عظيم من المرابطين يقوده الامير ابو بكر بن علي (١١٣٠ م) . وعقب هذا الانتصار موت المهدي فبويع عبد المؤمن بالخلافة بعده ، فتم على يده فتح مراكش

وانهار عرش ابناء تاشفين (١١٤٦ م) .

ومن الطبيعي ان تساهم الاندلس في ارهاق المرابطين ، خلال هذه السنوات ، مساهمة فعالة ، على امل ان تخلع نير المغتصب ، ويعود اليها استقلالها القديم . فاذا هي تخدم مصلحة الموحدين من حيث ارادت ان تخدم مصلحتها . فقد شبت الثورة في البقاع الغربية ، يؤرثها احمد بن الحسين بن قسي ، فاندلعت سريعة ممتدة الى اشبيلية وقرطبة ، تتلقف المرابطين من كل صوب ، ويعجز عن كبحها قائدهم يحيى بن غانية . بيد انها تحتاج الى نجدة تأتيها من الخارج فتضمن نجاحها ، والموحدون في عدوة المغرب يثخنون في المرابطين ، فلماذا لا يدعوهم احمد بن الحسين ويقدم لهم الطاعة ، حتى اذا ابطأوا عن تلبيته بشاغل حروبهم لا زهداً في الاندلس ، تتلفت انظاره الى الفنس بن هنري البورغوني ملك البرتغال ، فيمده بتجريدة باسلة ، تنفذ في الولايات المرابطية مفسدة ثقيلة الوطأة . وكان عبد المؤمن امير الموحدين يحاصر يومئذ مراكش (١١٤٦) ، وعيناه ناظرتان الى الجزيرة ، يرى الملك البرتغالي يناصر الثوار ويملأ يديه من الغنائم ، ويرى الفنس السابع ملك قشتالة[1] يعضد المرابطين طمعاً فيهم ، ومعاكسة لصاحب البرتغال . انما يجدر به ان يخف الى نجدة ابن قسي ، فيسحق قوات الملثمين ويقصي خطر المسيحيين عن الاندلس المسالمة ، فهو بها اولى ،

١ هو ابن ريمون البورغوني ، وامه اورا كا زوجة الفنس المحارب ، وقد مر ذكره قبلا .

واليه قبل غيره فزعتها ونداؤها ، وهذه مراكش توشك ان تفتح له الابواب . فجهز حملة من عشرة الاف فارس ، وعشرين الف راجل ، وقدّم عليها قائده موسى بن سعيد ، ثم اجازها الزقاق ، فافتتحت حصن الجزيرة وجبل طارق هازمة عنهما قوات المرابطين . ووافق ذلك سقوط مراكش ، وزوال دولة ابن تاشفين في افريقية ، فبات من السهل على الموحدين ، وثوار الاندلس حلفائهم ، ان يستأصلوا بقايا اعدائهم ، او يقسروهم على الجلاء . ومع هذا لم يتم لهم الامر الا غب معارك دامية ، بذل فيها الفنس السابع جهداً عظيماً ، دون جدوى ، لنصرة الملثمين ، فاوهنت قواه على تقدم العمر ، فمات منهوكاً سنة ١١٤٧ ، وترامي شتيت المرابطين الى الجزائر الشرقية (Baléarès) . اما الاندلس فلم تزل تابعة مراكش تحلم بالاستقلال وتستيقظ على العبودية . بالامس كان يتولاها الامير تميم من قبل اخيه علي ابن تاشفين ، واليوم يتولاها السيد ابو يعقوب يوسف من قبل ابيه عبد المؤمن بن علي ، بربري اثر بربري : ما اضيع الثورة في سبيل الحرية !

لم يستطع الخليفة الموحدي ان يدخل الارض الاندلسية الا سنة ١١٦١ بعد ان دوخ بلاد افريقية وافتتح المهدية وتونس وكانتا في حكم النرمند اصحاب صقلية . فعبر المضيق ونزل بجبل طارق ، فأنشأ فيه حصناً سماه جبل الفتح . الا انه لم يمكث طويلاً بل آثر العودة الى عاصمته المغربية ، تاركاً جيشه يوالي منازلة الثائر محمد بن سعد بن مردنيش امير بلنسية وحليف قشتالة

ولاون . وتوفي عبد المؤمن قبل ان تقمع ثورة ابن مردنيش ، فتولى الخلافة ابنه ابو يعقوب يوسف ، فتابع مجاهدة الثوار وحلفائهم الاسبانيين حتى استنزلهم عن بلنسية سنة ١١٧١ ، فهرب محمد بن سعد الى جزيرة ميورقة (Majorque) ، وخضع اولاده لسلطان الموحدين .

وكانت البرتغال يومئذ اشد الممالك المسيحية صولة على الاراضي الاسلامية ، فان مليكها الفنس البورغوني ، بعد ان حقق استقلال دولته ، نازعاً عنها يد قشتالة ، صرف همته الى توسيع حدودها بامتلاك ما جاورها من الثغور الاندلسية ، فلقب بالفاتح لكثرة ما اخضع من المدن والقلاع . فكان على الموحدين ان يجابهوا هذا الخطر قبل استشرائه . فحشد ابو يعقوب جيشاً عظيماً سنة ١١٨٤ واجتاز به الى الاندلس قاصداً اشبونة (لشبونة) عاصمة البرتغال . فقطع نهر التاج ، فاعترضته قلعة شنترين الحصينة (Santarein) ، فنصب لها ادوات الحصار ، وامر ابنه السيد ابا اسحق والي اشبيلية ان يسير بقواته في الصباح وجهة اشبونة ، ويحمي طريق شنترين . ففهم الامر على غير وجهه ، وارتد بعساكره نحو اشبيلية ، في حين ان شانجه (Sancho) ابن ملك البرتغال كان يتقدم الى شنترين بخمسة عشر الف مقاتل ، ثم ينضم اليه اسقف شنت ياقب بعشرين الفاً . فوقع الاضطراب في صفوف الموحدين ، وقلقت نفوسهم بغفلة ابي اسحق اذ اصبحوا بين القلعة والجيش الزاحف عرضة للتطويق . وادركهم المسيحيون وهم على هذه الحال المزعجة ،

فقاتلوا قتال اليائس ، الواهن العزيمة ، فدارت عليهم الدائرة ، وقتلت نخبة فرسانهم . وصبر الخليفة ابو يعقوب لعض السلاح صبر الكرام حتى سقط مدرجاً بدمائه ، ثم توفي متأثراً من جراحه (١١٨٤م) . وكان يوم شنترين مشؤوم الطالع على الموحدين ، فارتدت فلولهم الناجية الى قواعدها الاندلسية باسوإ مصير .

وصارت الخلافة بعد ابي يعقوب الى ولده الامير عبدالله يعقوب ، فتلقب بالمنصور . وكان همه في بدء سلطانه ان يجهز على بقايا المرابطين في الجزائر الشرقية ليمنع عدوانهم ، او يخمد فتنة داخلية يختل بها السلام ، فاتاح للبرتغال ان تغنم فرصة مؤاتية ، فتستأنف الغارات على الاندلس وتعود منها بفتح جديد . ثم توفي ملكها الفنس (١١٨٥م) فتسنم العرش بعده ابنه شانجه ، فسار على خطة ابيه في منازلة المسلمين . ثم شغلته احداث داخلية ، فترك الجهاد لالفنس الثامن ملك قشتالة . وكان هذا الامير لا يفتر عن غزو الولايات الاندلسية ، مع ما يعاني من مشاكل عسيرة تولدت بعد وفاة ابيه شانجه الثالث . وذلك ان جده الفنس السابع اتبع في نظام ولاية العهد الطريقة السيئة التي سنها اسلافه ، فقسم مملكته بين ولديه ، فجعل اكبرهما شانجه الثالث على عرش قشتالة . واعطاه حق الجزية على مملكتي نافار وارغون . وجعل اصغرهما فرديناند الثاني على عرش لاون وما يليها ، واعطاه حق السيادة على البرتغال . وكأنه اراد ان يتدارك خطر هذه التجزئة فاشترط على فرديناند ان يكون تابعاً لاخيه . وفي سنة ١١٥٨ توفي شانجه الثالث ملك قشتالة عن ولد في الثالثة من عمره اسمه الفنس ، ويلقب بالنبيل ، بعد ان

عهد في الوصاية عليه الى بعض اشراف كاسترو من اكرم الاسر الاسبانية ، ولم يجعل الوصاية لزوجه بلانكه اخت ملك النافار ولا لاخيه فرديناند خوفاً على الطفل من مطامع عمه وخاله . وكانت اسرة لارا تنافس ابناء كاسترو في الشرف والسيادة ، فساءها ان يصبح الملك في حوزة نديدتها ، تعتز به ويتعاظم نفوذها وسلطانها . فحملها الحسد على ان تختطف الامير الصغير وتجعله في عهدتها . فأدى عملها هذا الى حدوث مجزرة بين الاسرتين دميت لها اسبانية وتفككت اوصالها . ثم استجاش آل كاسترو فرديناند الثاني ليحمي ابن اخيه ، فساقه الطمع الى ان يبعث جيشاً يثخن في قشتالة ويحتل حصونها ومدنها . ولكنه لم يستطع ان ينتزع الطفل من ايدي بني لارا . وثارت قشتالة بجملتها تؤيد هذه الاسرة لوجود الملك عندها ، فقاومت صاحب لاون وابناء كاسترو معاً ، وردت غزوات ملك النافار وامراء المسلمين .

ولما بلغ الفنس النبيل الحادية عشرة (١١٦٦) بويع بالملك ، يشد ازره القشتاليون وابناء لارا ، فرد غارات عمه ، وطرد اسرة كاسترو ، فاحذت تلجأ حيناً الى الموحدين ، وحيناً الى لاون حتى توفي فرديناند الثاني (١١٨٨) وصار الملك الى ولده الفنس التاسع ، ولم يكن كفؤاً لابن عمه صاحب قشتالة فكف عن النزاع .

وكان الفنس الثاني ملك ارغون وهو سبط راميرو اخي الفنس المحارب ، قد رأى ان يحالف قشتالة ويعترف بحقوقها ، لكي ينصرف الى محاربة المسلمين ، ودفع النافاريين عن الاراضي التي يفتتحها من الاندلس لئلا يستولوا عليها . اما الفنس التاسع ملك لاون ،

وشانجه السابع ملك النافار ، فكانا يؤثران محالفة المسلمين على محالفة الفونس الثامن النبيل لانهما لا يريدان الاعتراف له بالسلطان . غير ان الخطر الذي بات يهددهم من قبل الموحدين ، اكرههم على السكوت فكانوا يتهادنون او يتحالفون الى حين .

وشاء الفنس الثامن ان يحمل على عاتقه عبء هذا الخطر المخيف مع ما كان يعانيه من مكايد آل كاسترو والامراء المسيحيين ، فراح يغزو الاندلس ، يعيث في بسائطها ، وينيخ على قواعدها ، حتى اخذته نشوة الظفر وهو يسير من نصر الى نصر ، فحدثته نفسه بان يتحدى خليفة الموحدين ، فيدعوه الى الحرب ، مستهيناً به ، مثيراً حفظته .

ويقول ابن ابي زرع في روض القرطاس ان الفنس النبيل كتب هذه الرسالة الى الخليفة يعقوب المنصور وبعث بها الى مراكش : « بسم الله الرحمن الرحيم . من ملك النصرانية الى امير الحنيفية . اما بعد فان كنت عجزت عن الحركة الينا ، وتثاقلت عن الوصول والوفود علينا ، فوجه لي المراكب والشواني اجوز فيها بجيوشي اليك حتى اقاتلك في اعز البلاد عليك . فان هزمتني فهدية جاءتك الى يدك ، فتكون ملك الدينين . وان كان الظهور لي ، كنتُ ملك الملتين ، والسلام . »

وروى ابن الاثير وابن خلكان رسالة قريبة من هذه ، واكثر تفصيلاً ، وعلق ابن خلكان عليها بقوله : « ان نص هذه الرسالة كتب مثله الاذفونش بن فردكند (الفونس السادس بن فردينان) الى امير المسلمين يوسف بن تاشفين . » ومهما يكن من شيء فان

الرسالتين لا تختلفان في المعنى وفي طريقة الاستفزاز . فلما وصل الكتاب الى الخليفة المنصور ، تلظى غيظاً من صلف الملك الاسباني واستخفافه المهين . فامر ولده وولي عهد السيد محمداً بالرد عليه . فكتب على ظهره الآية : « ارجع اليهم ، فلتأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولتخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون . » ثم اضاف اليها[1] : الجواب ما ترى لا ما تسمع :

ولا كتبَ إلا المشرفيةُ والقنا ولا رسلٌ الا الخميس العرمرم

وما كان من المنصور بعد ان تلقى كتاب الفنس ورد عليه الا ان نشط للحرب بعد اهبته ، ويعبىء الجيوش ويبعثها الى الاندلس ، حتى اذا تم له الحشد العظيم عبر الى الجزيرة الخضراء ، فانضمت الى جنوده العساكر الاندلسية ، فتألف منها جميعاً جحفل جرار يضيق عنه الفضاء ، كما يعبر ابن الاثير ، وتقدره بعض الروايات المغالية بستمائة الف مقاتل . وكان الجيش النظامي فيه مؤلفاً من قوات الموحدين الخاصة ، ومن الفيالق الاندلسية ، وسائره جموع غفيرة غير نظامية من قبائل العرب والبربر الراغبين في الحرب والجهاد .

ومما يجدر ذكره ان جيش الموحدين النظامي كان من ارقى الجيوش في ذاك العصر ، ويعود الفضل في انشائه وتنظيمه الى الامير عبد المؤمن خليفة المهدي ، فانه كان ذا خبرة عظيمة في

١ الاضافة رواها ابن الاثير وألحق ابن خلكان بها الشعر ، وهو للمتنبي ، ولعل الرواية التي تكتفي بالاية وحدها هي الصحيحة .

تدريب الجيوش وقيادتها ، وادارة حركاتها . فقد ابتنى في مراكش مدرسة عسكرية يجتمع بها نحو ثلاثة الاف طالب من الاشراف يسمون الحفـاظ وطلبة العلم . وكان يمتحنهم بنفسه ليقف على تقدمهم في فنون القتال ، فيشهد رياضتهم على ابواب الطعن والضرب والرمي والمبارزة ، والعدو وركوب الخيل ، والسباحة وقيادة السفن والوثب الى سفن الاعداء ومعارك البحار . فهذه العناية بتنظيم الجند ضمنت للموحدين جيشاً مدرباً اجمل تدريب ، يطمئنون اليه في محاربة اعدائهم ، ويجني لهم الظفر في اغلب المواقع .

وكان الخليفة المنصور يرمي في زحفه الرهيب الى مساورة طليطلة عاصمة قشتالة . فبلغه ان الفنس الثامن حشد جيوشه بين قرطبة وقلعة رباح (Calatrava) بالقرب من حصن الأرك (Alarcos) ويسميه ابن الاثير وابن خلكان مرج الحديد . فغير خطته ودلف الى لقائه حيث يرابط بعساكره . فلما صار منه على مسافة يومين عقد مجلساً للشورى من كبار القواد واصحاب الرأي ، ليتفق واياهم على الطرق التي ينبغي اتباعها . وكان القواد الاندلسيون ادرى من غيرهم بمكايدة الاسبان ، ومعاكسة اساليبهم ، فأحب ان يسترشد بنصائحهم ، فاستشار خصوصاً القائد ابا عبد الله بن صناديد ، لما يعرف عنه من الحنكة وصدق النظر . فأشار عليه بتوحيد القيادة وخطة القتال ، وان يعهد في قيادة العساكر الاندلسية الى رؤسائهم ، لانهم لا يحسنون الحرب ، ولا يتحمسون لها اذا اقيم عليهم قواد غرباء . واشار

ايضاً بان تقدم الجنود النظامية لمجابهة العدو والتقاء حملته اذا حمل، وان تبقى القوات غير النظامية واقفة على اهبتها احتياطاً للنجدة، وان ينزل الخليفة بحرسه الابيض والاسود وراء التلال القريبة، فاذا تراوح الفريقان غارَ النصر فاجأ العدو بهجوم صاعق فيقضي عليه.

فاستحسن المنصور هذه الاراء وامر القادة بالتزامها. ثم اناط الرئاسة العليا بوزيره ابي يحيى بن ابي حفص وكان، على شجاعته، صاحب خبرة ودراية.

واما جيش قشتالة فلم يكن ضئيل الحشد. فهو على رواية المستشرق جوزف اشباخ يزيد على مائة الف مقاتل، وتبالغ الرواية العربية فيه فترفعه الى ثلاثمائة الف. ومع دلك كان لا يوازي جيش الموحدين في عدده، فان تعبيتهم يفوتها الحصر والاحصاء. واعتمد الفنس على الاخص منظمات الفروسية المسيحية كفرسان الداوية[1]، وفرسان قلعة رباح، وغيرهم من جماعات الفروسية في مملكته. بيد انه استعظم الخطب حين انتهى اليه خبر تعبية الموحدين، فخشي سوء العاقبة اذا لقيهم بجيشه دون غيره. فكتب الى نسيبيه ملك لاون وملك النافار يدعوهما لترك الاحقاد، والمبادرة الى مساعدته. فأجاباه الى طلبه نزولاً عند رغبة الشعب المتحمس. وحشدا العساكر وسارا بها اليه، إلا انهما

١ فرسان الداوية هي جماعة فرسان الهيكل Les templiers نظمها الفرنجة في القدس سنة ١١١٨ لحماية القبر المقدس، ثم انشىء لها فرع في اسبانية.

كانا يزحفان بطيئاً ليصلا بعد فوات الاوان، حتى يئس الفنس من مجيئهما، ولم يبق له سبيل غير مباشرة القتال. وابى ان يتحصن بالقلاع التي بين يديه فتمنعه ما طاب للمسلمين الحصار، وكأنه عدّ ذلك عاراً ومذمة، فاختار الهجوم مستبسلاً متكلاً على حمية فرسانه. فابتدأت موقعة الارك في ١٩ تموز ١١٩٥ (٩ شعبان ٥٩١ هـ).

وكان الموحدون يحمون القلب بقواتهم النظامية، والاندلسيون في الميمنة يقودهم عبدالله بن صناديد، وقبائل العرب البربر في الميسرة، والخليفة المنصور بحرسه وراء التلال. وعسكر الجيش الاسباني في مرتفع تحميه قلعة الارك من جانب، وبعض التلال من جانب آخر. فزحفت اليه مقدمة المسلمين من المتطوعة تمهد للمعركة بسهامها. فما تدانوا من التل الذي عليه الفنس حتى تجارى اليهم نحو ثمانية الاف من كل فارس غارق في الحديد، فالتقتهم المطّوعة يساندها القلب والجناح الايسر. فتعالى الصياح، واستكت اذان الفضاء من وقع سنابك الخيل، وتجاوب اصوات الابواق والطبول. ثم استطال المسلمون فكسروا من حدة القشتاليين وردوهم على اعقابهم. غير انهم ما عتموا ان جمعوا شملهم، وجددوا الحملة عليهم، فردوهم ثانية. ولكنهم كانوا عُنُداً صلاباً، فلم تهن عزائمهم بعد الردتين بل ضاعفوا قواهم، واندفعوا ثالثة كالعاصف الجارف وقد احنقتهم الخيبة، وزادتهم حماسة واقداماً، فاخترقوا صفوف العدو وتوغلوا في الجناح الايسر فمزقوه، وشتتوا

جمعه فهلك الوف من قبائل العرب والبربر، غير الجنود النظامية، ولم تتم خطة عبدالله بن صناديد اذ اشار بان يتركوا الميسرة للاحتياط والامداد.

ثم عطف القشتاليون على القلب وهو مرتعش مذعور لانكسار حائطه الشمالي، فصدعوا جانبه ناشبين في احشاء الموحدين، يقلبون بعضها على بعض، ويشطرونها اجزاء، فتساقطت جثث القتلى اكداساً، وغصت حاجر الارض من ابتلاع الدماء. ولشد ما عظمت فجيعة الموحدين بالقائد الاعلى ابي يحيى بن ابي حفص، تلقفته سيوف الاسبان بعد ان بلوا من سيفه امر البلاء. وعندئذ علا التكبير من الجناح الايمن وحملت العساكر الاندلسية وبعض بطون زناتة يتقدمهم القائد المجرب عبد الله بن صناديد، فاقتحموا قلب الجيش القشتالي، وحجزوا بينه وبين فرسانه الطاعنين في قلب الموحدين. وكان الملك الفنس يتولى قيادته بنفسه، ومعه عشرة آلاف فارس، فيهم الداوية وفرسان قلعة رباح، فتلقاهم ثابت الجنان يصابرهم على قلة عدد، ويدفع تيارات امواجهم المتهايجة. وفيما الاندلسيون يواثبون سفح التل والفنس يدافعهم عنه، ووراءهم فرسان قشتالة يزعزعون قلب الموحدين بعد ما شردوا الميسرة، وفيما النصر يراوح بين الجانبين لا يدري له مستقراً، اذا بالطبول تقرع من وراء الاكام، والخليفة المنصور يطلع بحرسه المختار، امامه العلم الابيض منقوشاً عليه: « لا إله إلا الله، محمد رسول الله، لا غالب إلا الله. » فينقض على فوارس قشتالة وهم يمعنون في القلب ارهاقاً، فيلأم صدعه الدامي، ويردهم

عنه مندحرين . فعاود الامل جنود الموحدين ، واشتدت سواعدهم بعد ارتخاء ، فساوروا اعداءهم كالليوث مستبشرين بالنصر ، لا يبالون ما يكلفهم من الضحايا هجومهم المجنون . فما زالوا بهم حتى حطموا شوكتهم ، فانهزموا شماطيط الى سفح التل يلوذون بالفنس .

وابى خليفة الموحدين ان يتصرم النهار قبل ان يحرز النصر كاملاً ، فمشى بالعدد الاوفر الى التل يخترق قلبه ، ويساند قوات الاندلسيين ، فدافعت فرسان الداوية وقلعة رباح عن مليكها امجد دفاع ، فكانوا يتساقطون من حوله صرعى ، لا يحدثون النفس بالفرار ، حتى لم يبق منهم الا فضلة يسيرة لا تستطيع زياداً ، فخشيت ان يفتك الاعداء بسيدها وهو مصر على الثبات لا يطيق براحاً ، فاكرهته على الانكفاء ، فانقذت حياته وكان بوده لو يبذلها سماحاً .

ثم اقتحم المسلمون حصن الارك ، فاستنزلوا اصحابه واستولوا عليه . وهاجموا قلعة رباح فامتلكوها وكان فرسانها قد تخلوا عنها . وانتهت المعركة بانكسار ساحق للاسبانيين .

يقول ابن خلدون ان المسيحيين خسروا في هذه الواقعة ثلاثين الف قتيل . اما ابن الاثير فيجعل القتلى ستة واربعين الفاً ومائة الف ، والاسرى ثلاثة عشر الفاً . ويقدر قتلى المسلمين بنحو عشرين الفاً . وكانت الغنائم عظيمة جداً .

قال ابن خلكان : « وغنم المسلمون أموالهم حتى قيل ان الذي حصل لبيت المال من دروعهم ستون الف درع . واما

الدواب على اختلاف انواعها فلم يحصر لها عدد . ولم يسمع في بلاد الاندلس بكسرة مثلها . »

فمعركة الارك ، لا جرم ، ثلت عز قشتالة ، وهتكت حرمة سلطانها . وما كان الامراء المسيحيون يتوقعون لها هذه الكارثة الشنعاء ، وقد بلوا صولتها وجبروتها ، فوقعت هيبة الموحدين في نفوسهم ، وداخلهم الخوف على اماراتهم ، فاسرعت مملكتا لاون والنافار الى محالفة الخليفة المنصور ، وهما في خذلهما لالفنس الثامن ، وتأخرهما عن نجدته ، اوصلتاه الى هذه النتيجة الفاجعة . يضاف الى ذلك ما لقي المسلمون من مساعدة الكونت بدرو احد ابناء كاسترو ، فقد كان هذا الامير فاراً عن وطنه مع اعوانه ، ناقماً على قشتالة التي رفعت اسرة لارا باذلال اسرته ، فلم يتأثم ان يبيع امته ويقدم سيفه للموحدين .

ثم ان الملك الفنس رأى ان يحذو حذو لاون والنافار فيسترضي المنصور ويلتمس منه الهدنة بعد ما ابصر جيوش المسلمين تتابع الغزوات في ولاياته ، تتلف الزرع ، وتقطع الشجر ، وتبلغ ابواب طليطلة ، وهو لا يجرؤ ان يخرج الى لقائها ، بل يرى الخير ، من خوفه ، في الامتناع بقلاعه وحصونه . وقد رضي المنصور بهادنته لانه كان مضطراً الى مغادرة الجزيرة ليخمد ثورة لا يبرح يشعلها في افريقية والمغرب بقايا المرابطين . فعاد الى مراكش يصلح من شؤونها ، وامنت رياض الاندلس شر اسبانية زمناً ، ولكنها ما نالت من نعم الاستقلال الذي حاربت عليه الامارات المرابطية والمسيحية إلا شارة الخضوع لسيطرة الموحدين .

معركة العقاب

بين معركة الارك ومعركة العقاب سبع عشرة من السنين ساقطت ورقات يومياتها عن احداث وشؤون كانت بطبيعتها معلولاً للاولى، وعلة للاخرى. فان انتصار امير الموحدين على قشتالة، وما تلاه من خضوع الفنس الثامن لسيفه، والتماسه الهدنة منه، واسراع ملكي لاون والنافار الى محالفته وخطب وده، مكن سلطانه في الاندلس، وحرمته في النفوس، واتاح له ان يتفرغ الى اصلاح فتوق مملكته، وتأديب العصاة والثائرين دون ان يصرف النظر عن امراء اسبانية، وما في صدورهم من ضغائن يحفظها بعضهم لبعض. فقد كان المنصور، على علو همته، وافر الذكاء، بعيد النظر، لا يسقط عنه ان يستغل خلافهم لمنفعته وخير

امته ، وهو يعلم انه ما دام الشر معصوصباً بينهم ، لا يرتفع لهم صوت جهير ، ولا يفيّىء عليهم ظل ممدود ، في بقاع يعمرها الاسلام . أفما يجدر به ان يحرّك فيهم ، من وراء حجاب ، لاعج العدوان ، فتنام الاندلس على امن وسكينة ، وتشرق اسبانية المسيحية بدمها الى يوم يوهنها النزف ، فترتمي متلاشية على اقدام المسلمين ؟ فلاون والنافار متعطشتان للانتقام من قشتالة واذلالها لما تفرض عليهما من السيطرة ، فطبيعي ان تستهينا جانبها جزاء كسرتها ، فتستنزلاها الى محاربتهما بعد ان تخلتا تخومها عاديتين بتحريض الموحدين ، ووعدهم بالمساعدة .

وذهب المنصور الى ابعد في توسيع الخرق بين الامراء المسيحيين ، فحاول ان يجعل حليفه ملك النافار تابعاً له ، على ان يزوجه احدى بناته . وتقول الرواية الاسبانية ان شانجه السابع اغترّ بهذه المواعيد فقصد الى مراكش بغية تحقيقها ، تواكبه كتيبة من الفرسان . بيد ان الرواية العربية لا تذكر شيئاً من خبر الزواج ، بل تقول ان ملك النافار جاء اشبيلية سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) ليزور الخليفة الناصر ابن المنصور . ومهما يكن من امر الزيارة وزمنها ومكانها فان المصاهرة لم تربط اواصرها بين الاميرين ، فرجع شانجه الى مملكته فارغ الفؤاد ، وقد علم ان الزواج من اميرة موحدية يدعوه الى الاسلام ، وباسلامه لا يطمئن له عرش النافار .

على ان هذه الجهود التي بذلها المنصور لتمكين سلطانه ، واضعاف ملوك اسبانية ، لم تلبث ان تراخت عزائمها بموته سنة

١١٩٩ م (٥٩٥ هـ) وقيام ولده محمد ابي عبدالله الناصر . فان هذا الامير مع شجاعته ، لم تكن له مواهب ابيه ، وصلابة عوده ، فاسلم ارادته الى حاجبه ابي سعيد بن جامع ، فورطه في مزالق لا تنبىء عن امانة الوزير واخلاصه .

وكان هم الخليفة الجديد ان يترسم اباه في ضبط الولايات الاندلسية ، وارهاق ملوك اسبانية مستثمراً شقاقهم ، غير انه لم يتمكن من الالتفات الى عدوة اروبة الا بعد ان دفع خطر المرابطين عن افريقية ، وازال بقية دولتهم في الجزائر الشرقية (Balé ares) (١٢٠٨ م) .

وكان البابا اينوسان الثالث قد استطاع ، في تلك الاثناء ، بسلطانه الديني ، ان يصلح بين الامراء الاسبانيين الى حين ، ويؤلف قلوبهم على محاربة المسلمين . فنشط الفنس الثامن ملك قشتالة الى غزو الاندلس (١٢٠٩) فأوغل فيها باطشاً فاتكاً . ثم اغار عليها ثانية (١٢١٠) فانتسف كورة جيّان (Jaên) وبياسة (Baèza) واندوجار (Andujar) وعاد في المرتين بجلائل السبايا والغنائم . فعندئذ نادى الخليفة الناصر بالجهاد ، وقد راعه تغلب العدو على كثير من الحصون الاندلسية ، فجمع الجموع وحشد العساكر ، حتى بلغت تعبئته ستمائة الف فارس وراجل ، فعبر المضيق الى اشبيلية (١٢١١ م — ٦٠٧ هـ) يستعد للقتال . فنصح له حاجبه ابن جامع الا يتقدم في بلاد الفنس قبل ان يفتتح قلعة شلبطرة (Salvatierra) ، فساورها ثمانية اشهر ، وهي ممتنعة عليه لحصانتها ، فهلك دونها الوف ، وابن جامع

يمنع الناصر ان يرفع الحصار عنها ، ويتجاوزها الى طليطلة ، حتى اضر بها الجوع المرير فاعطت قيادها مكرهة ، بعد ما انقذت اسبانية المسيحية بصبرها الطويل كما يقول جوزف اشباخ : ذلك بانها اتاحت لالفنس الثامن ان يستصرخ دول اسبانية خصوصاً واروبة عموماً لتجهيز حملة صليبية غربية تذكر المسلمين بحملات الصليبيين في الشرق . فقد ازعجه ما انتهى اليه من انباء قوات الموحدين ، وزحفها الجرار ، ولاح له الخطر المخوف ينقض على قشتالة ، بل على الامارات الاسبانية مجموعة ، وهيهات لا يرجى دفعه عنها ، الا اذا تظاهرت عليه وتناست احقادها ، وخير لها ان تستنجد ابناء ملتها في الغرب . فبعث جرهارد مطران سقوبية (Ségovia) الى رومة يلتمس من الحبر الاعظم ان يدعو الامم المسيحية الى نصرة الصليب . وبعث المؤرخ ردريق مطران طليطلة وسواه من المطارنة الى فرنسا وما يليها من الدول الاروبيـة ليستثيروا الشعور الديني ، مبينين الخطر الذي يهـدد النصرانية ، ودعا الامراء الاسبانيين الى الاجتماع والمفاوضة ووضع الخطط التي ينبغي اتباعها . فتكللت هذه المساعي بالنجاح المأمول ، ولبت اروبة دعوة الكرسي الرسولي ، ونداء الاساقفة المتحمس ، واقتنع مـلوك اسبانية بضرورة الاتحاد . فما طال الامـد حتى بدأت الوفود تتـلاحق الى طليطلة من مختلف الامصار الاروبية ولا سيما فرنسا ، حاملين شارة الصليب دليل الذياد عن الدين ، يتقدمهم كبار الاحبار يستحثونهم ، ويوقدون الحمية في الصدور . يقول جوزف اشباخ ان جيش الوافدين بلغ في اوائل حزيران

١٢١٢ اكثر من عشرة الاف فارس ، ومائة الف راجل ، فيه من القوامس ما يقدر بالفين ، اضف اليه ما ارسلت فرنسا وايطاليا من المال والمؤن والسلاح .

واما الجيوش الاسبانية فاول من قدم منها جيش ارغون يقوده عاهله بدرو الثاني ، وفيه طبقة مختارة من الكماة كجماعة الداوية (فرسان الهيكل) . وتتابعت بعده الفيالق من لاون وجليقية والبرتغال حتى فاضت طليطلة وارباضها بالعساكر المنتشرة ، والخيام المنتصبة ، والخيل والعتاد . ثم زحفت هذه القوى العظيمة طالبة قلعة رباح ، وفرسان هذه القلعة يلتهبون حماسة لاسترجاعها . وكان فيها حامية من الموحدين على رأسها القائد يوسف بن قادس ، فهاجمتها الجيوش المسيحية دفعة واحدة ، فاستولت على المدينة دون القلعة . فخشي ابن قادس مغبة الحصار اذا افتتحت القلعة عنوة ، وهي لا محالة ساقطة في ايدي العدو ، فمن العبث ان تحاول قلتها مقاومة الكثرة . فآثر ان ينقذ حاميتها من الهلاك بالاستسلام اذ لا ينفع الدفاع فتيلاً . فبعث الى ملك قشتالة رسولاً يفاوضه من قبله مشترطاً ان تخرج الحامية بسلاحها مأمونة . فرفض الارغونيون ووفود المحاربين هذا الشرط ، وطلبوا متابعة الحصار ، فاضطر ابن قادس ان يرضى بتجريد الحامية ، فغادرت القلعة بعد ان اخذت الامان على نفوسها ، وتولى الفرسان الاسبانيون حراستها مخافة ان يفتك بها جند الوافدين لانهم كانوا يريدون قتالها وقد اغضبهم تأمينها . فسار بها ابن قادس الى الخليفة الناصر ، فاطلعه على ما

قام به من التدابير لحقن دماء المسلمين حيث لا يفيد بذلها . ولكن ابن جامع ابى الا ان ينزل القصاص بالقائد الحكيم ، فاغرى الناصر به متهماً اياه بالتقصير والخيانة ، فقتل المسكين وطابت نفس الحاجب الماكر . فاستاء الناس لهذا الحادث ولا سيما الاندلسيون ، وكانوا يكرهون ابن جامع لتكرار مكايده . فابدوا نفورهم من عمل الناصر ، وهم انما جاؤوا للحرب متثاقلين ، ساخطين على الموحدين كما سخطوا من قبل على المرابطين . كيف لا وما زالوا يشعرون بضياع حقوقهم شعورهم بالامس . أفتراهم يحسنون القتال ، ويثبتون للضرب والطعان ، وفي الصدور حزازات وشهوات لا يسكنها الا انخذال الموحدين ، لعل الاستقلال اليهم يعود ؟ ومثل هذه الحالة النفسية ، في جيش يتأهب للكفاح ، ينذر ، ولا بد ، بخطب جليل .

وكذلك العساكر المسيحية لم تسلم من التصدع على اثر استنزال الحامية من قلعة رباح مأمونة فان وفود الفرنجة ما لبثوا ان جاهروا بامتعاضهم من الاسبانيين ، فقفلوا راجعين الى اوطانهم متهمين ملك قشتالة بانه استأثر بنفائس القلعة واموالها . وقيل ان عدد الذين رجعوا يبلغ خمسين الفاً من مائة الف . إلا ان انفصالهم عن الجيش قبل المعركة كان اخف ضرراً مما لو انفصلوا في اثنائها ، واوقعوا خللاً فجائياً ، يصعب تلافيه ، في ترتيب الصفوف ، وتنظيم اجزائها . فقد استطاع الاسبانيون بعد رجوع هؤلاء المحاربين ان يجمعوا انفسهم ، ويدلفوا بقدم ثابتة الى حصن الارك ، ولهم فيه اوجع الذكريات ، فيفتتحوه بيسر

مستبشرين . وفيما هم يتقدمون الى لقاء الناصر ، وافاهم شانجه ملك النافار بجيشه فرأب الخلل الذي احدثه اياب الفرنجة المطّوعين .

روى المستشرق جوزف اشباخ ان الناصر بقي يتحامى اصطلاء المعركة على ضخامة جيشه ، خوفاً من المحاربين الصليبيين لان شجاعة فرسان الفرنجة طارت شهرتها من الشرق الى الغرب ، فلما بلغه انهم انفصلوا عن الاسبانيين ، ورجعوا الى بلادهم ، زالت وساوسه ووطن النية على طلب القتال ، والسير الى العدو .

وكان الاسبانيون قد نفذوا الى جبل الشارات (Sierra Morena) في ١٢ حزيران ، وامتلكوا ، على بعض قمه ، قلعة للموحدين ، فبادر الناصر ، فعبر الوادي الكبير الى الموضع المعروف بالعقاب [١] (Las Navas de Tolosa) وسد بجيشه منافذ جبل الشارات ، فتأزم موقف المسيحيين في شعافه ، اذ اصبحوا متعذراً عليهم هبوط السهل لملاقاة الموحدين ، فهم مضطرون الى احد امرين : اما البقاء وتعريض النفس للجوع والعطش ، واما الرحيل حيث يتحدث الناس عنهم بالهزيمة بعد ان حشدوا قوات الممالك الاسبانية .

وفصل المستشرق جوزف اشباخ هذه المعركة تفصيلاً دقيقاً رأينا ان نستند اليه في وصفها وذكر احوالها . فان ملوك الاسبان بعد ما وقفوا حائرين بين اللبث والقفول ، والفنس الثامن اشدهم

١ قد تكون العقاب جمعاً يعني عقاب الجبل مفردها عقبة ، وقد تكون مفرداً بمعنى الطائر المعروف الذي يحتل القمم العالية ، يعزز ذلك ان روض القرطاس يسمي المكان بحصن العقبان .

عناداً وكرهاً للتقهقر والرجوع، تمكنوا من الانحدار الى السهل بطريق خفي ارشدهم اليه بعض الرعاة، فسار امامهم دليلا حتى بلغ بهم مسلكاً صالحاً يُنزل منه الى سهل ابدة (Ubeda)، فاعتبر المسيحيون هذا الراعي رسولاً من لدن الله. وانتقلت جيوشهم من الجبل الى السهل دون ان ينتبه المسلمون لحركاتهم، ذلك بان الملوك الثلاثة ظلوا في القلعة لا يغادرونها حتى تم انتقال العساكر. فلما خلا منهم جبل الشارات ظن الموحدون انهم احمدوا الفرار، وضجروا من البقاء. ولكن ما عتموا ان ابصروا معسكرهم في السهل المقابل، فعلموا انهم خدعوا، ولم يفطنوا لانتقال العدو فتركوه يحتل مكاناً افضل من مكانهم، يشرف عليهم من الربى العالية. بيد ان الناصر كان معتداً بعظمة جيشه فلم يبال هذا التبدل في الموقف، واعتقد ان النصارى لا يصبرون طويلاً على حربه، وسيحتاجون الى المؤن والذخائر في انقطاعهم عن قشتالة. فبأيدي عساكره الحصون الجبلية جميعاً، ومنها القلعة التي احتلها الاسبانيون في البدء على جبل الشارات. فما تلكأ ان باشر الدعوة للقتال، فأبوها في اليوم الاول لما هم عليه من التعب. ثم ابوها في اليوم التالي لانه يوم احد فكرهوا ان يحاربوا فيه. فلما كان صباح الاثنين في ١٦ تموز ١٢١٢ (١٥ صفر ٦٠٩ هـ) اقام الاساقفة الصلاة ومنحوا الجنود البركة الرسولية، والغفران الكامل. ثم جعل الملوك والقواد ينظمون جيوشهم، فوقف الفنس الثامن ملك قشتالة في القلب يدير حركاته، ويشرف منه على سائر الاقسام. ويتألف القلب من اربع فرق، احداها فرقة الجبليين

القشتاليين يتقدمها القائد ذو هارو . والثانية فرقة فرسان قلعة رباح ، وشنت ياقب [١] (Santiago) ، والداوية ، والاسبتارية [٢] (Les Hospitaliers) ، يتقدمها الكونت ذو لارا . والثالثة فرقة فرسان قشتالة القديمة ، واشتوريش (Asturies) ، وبسكونية (Biscay) ، يتقدمها الكونت رذريق دياز . والرابعة الفرقة الاحتياطية من طليطلة ولاون يقودها الملك الفنس بنفسه .

واما الجناح الايمن فكان على رأسه شانجه السابع ملك النافار ، وفيه جنوده وفرسانه ، والكماة الفرنسيون الذين آثروا البقاء ، وفيه جنود جليقية والبرتغال يتقدمهم الامير بدرو البرتغالي .

وينقسم الجناح الايسر على اربع فرق تضم العساكر الارغونية وبعض رجالة قشتالة ، يتقدمه بدرو الثاني ملك ارغون .

واصطفت عساكر المسلمين في سهل العقاب مقابل أبدة ، مقسومة على خمس فرق ، يتألف منها الخميس العرمرم . ففي المقدمة فرقة المطوعة ، وتجعلها الرواية العربية ستين الفاً ومائة الف . وفي الميمنة الجنود الاندلسية . وفي الميسرة البرابرة . وفي القلب جيش الموحدين . وفي المؤخرة الفرقة الاحتياطية من المغاربة والجيش النظامي . وبين القلب والمؤخرة نصبت للخليفة القبة

١ انشئت جماعة فرسان شنت ياقب في حليقية سنة ١١٦١ واقفة حياتها على الذود عن الدين ، وكان شعارها سيف القديس يعقوب دامياً في صورة الصليب .

٢ نشأت جماعة الاسبتارية (فرسان المستشفى) في القدس على اثر نشوء الداوية. وساهمت في الحروب الصليبية ، وحماية القبر المقدس، وقام لها في اسبانية فرع كما قام للداوية.

التقليدية الحمراء التي ورثها المسلمون عن عرب الجاهلية ، وامامها جواده مسرجاً ، يحيط بها حرسه الخاص من الفرسان والمشاة ، بايديهم الرماح الممدودة ، ودون الوصول اليهم دائرة شدت من سلاسل الحديد .

وما انتهى تنظيم الجيوش حتى تجاوبت اصوات الطبول والابواق من الجانبين ، فارتجت لها الربى والسهول ، واذا الخليفة الناصر يخرج من قبته عليه عباءة سوداء . فرفع المصحف بيد والسيف بالاخرى ، اشارة الهجوم ، فحملت المطّوعة خفيفة عنيفة تلطم القلب ، فالتقاها الجليون وجماعات الفرسان بحملة معاكسة ألانت من حدتها . ثم لم يلبثوا ان استطالوا عليها واكثروا من الفتك بها فاضطروها الى الفرار ، فانهزمت امامهم وهم يطاردونها بالحراب في اقفائها . فلما اقتربوا من القلب يبغونه ، صدمهم قوى الموحدين النظامية ، فرأوا امامهم جنوداً باسلة ، مجربة في الحروب ، مدربة احسن تدريب . وما طال الامر حتى تمزقت جموعهم ، فتشتتوا عنها منهزمين . فرجحت كفة المسلمين ولاح لهم وامض النصر ، فهللوا مستبشرين . ولم يكن ملك قشتالة يتوقع هذا الفشل من القلب وفيه صُيّانة الفروسية الاسبانية ، فطار رشده ، واشتهت نفسه الموت فمشى الى المعركة يريد ان يخوضها بفرقته الاحتياطية ، فمنعه المطران ردريق والقوامس ان يغرر بحياته ، والتمسوا منه ان يكتفي بانعاش القلب المتدهور ، فأمده بنجدة مختارة يتقدمها الاساقفة ، يحملون الرايات عليها صور الطفل الالهي وامه البتول ، فاستثاروا بها حماسة الفرسان المنهزمين ، فعاد اليهم نشاطهم ، واتاح لهم هذا المدد ان

يلموا شعثهم المنتشر ، ويكروا ثانية على جيش الموحدين ينقرون حبة قلبه ، ويرمقون دائرة السلاسل حيث الخليفة الناصر ، والقبة الحمراء . ومن دون الدائرة اهوال تختطف عليها الاعمار ، فليس صدع القلب بالهين السهل ، وفيه نخبة الجيش النظامي . ووراء السلاسل عدد كثير من الحراس الاشاوس يحرسون القبة بغابة من عوامل الرماح . ولكن قد تجري الاقدار بما لا يتوقع الانسان ، فبينا فوارس قشتالة يصكون القلب والقلب ثابت لا يتحلحل ، اذا الجناح الايمن يلتوي فجأة وينهزم الاندلسيون تاركين رفاقهم ، وكانوا ، كما علمنا ، ناقمين على الموحدين يضمرون لهم الشر ، فلم يقاتلوا قتالهم المعهود في المعارك التي يصطلونها متحمسين . وهم كعادتهم متهورون في اعمالهم لا يفكرون تفكيراً صحيحاً في نتيجة ما يصنعون . وما كادت الميمنة تتعطل حتى مشت الميسرة على اثرها فتقصف جناح البربر ، وبقي القلب عارياً من الجانبين يدافع الاسبانيين ويصابرهم ، وهؤلاء قد ازدادوا حمية واقداماً بعد تحطيم الجناحين ، فصدعوا القلب الجريء واوغلوا في اوساطه يقرعون دائرة السلاسل ، فجرت امامها انهار من الدماء ، وتكدست حولها جثث القتلى تلالاً . الموحدون في القلب مخرّقة صفوفهم ، يستميتون مقاومة ودفاعاً . والمغاربة في المؤخرة يقدمون لسد الثلمات غصاباً . والاحراس البيض والسود يطاعنون الخيل عن حرم القبة وحرم الخلافة : مشهد رائع تجلت فيه البطولة الاسلامية باجمل معانيها ، تغالب اليأس ، واليأس غالبها ، وترتجي الظفر وقد اشاح بوجهه عنها . اقبل الحظ على الاسبانيين ،

وما كانوا دون اعدائهم جراءة وعناداً ، فشدوا عليهم ملحين ، يستعجلون النصر قبل هزيمة النهار ، لا يبالون في كسبه خسارة الارواح ، فهم يشقون الصفوف ويتقدمون ، وهم يحيطون بدائرة السلاسل فيقتحمها الكونت ذو لارا واثباً بجماعات الفرسان ، ويقتحمها شانجه ملك النافار وبدرو ملك ارغون من اليمين والشمال ، فانهارت قوى الدفاع من كل جانب ، واستمات الحراس على غير جدوي وفي القبة الحمراء سيد الموحدين ، قاعد على درقته ، يتلقى الانباء سيئاً بعد سيء ، متجلداً مكفهراً ، حتى جاءه النبأ الاسوأ : قتل ابنه واعتصم الجيش بالفرار ! فوقف الناصر حينئذ وقال : « صدق الرحمن وكذب الشيطان ! » ثم ركب حصانه المسرج ونجا بجماعة من اصحابه .

وكأن المسيحيين ، وقد اخذتهم نشوة القلب ، ابو الا ان يعيدوا الطعن في اثر الهاربين ، فتعقبوهم تشفياً ، وانتقاماً ، فقتلوا منهم في اثناء الهزيمة اكثر مما قتلوا في اثناء المعركة . وتقول الرواية العربية ان حسارة المسلمين كانت جسيمة جداً اذ لم ينج منهم سوى مائة الف من ستمائة الف مقاتل . في حين ان الرواية الاسبانية اكثر اعتدالاً في حسابها ، فلا ترفع خسارة العدو الى اعظم من مائتي الف ، ولكنها تجمع في الوقت نفسه على ان خسارة المسيحيين ليست بذات شأن . وهذا صعب التصديق ، لان الحرب في مرحلتها الاولى كانت دائرة على الاسبانيين ، ثم ان اقتحام السلاسل ما تم لهم الا بعد تضحيات جليلة وبلاء كبير ، فغير معقول ان تكون خسائرهم لا تستحق

الذكر كما يزعم الرواة الاسبانيون . بيد انها تبدو ضئيلة اذا قيست بخسائر اعدائهم ، لان فشل العساكر الاسلامية لم يقع على صورة عادية مألوفة ، فقد تراجعت صفوفهم وتمزقت اشتاتاً قبل ان تمنى بالانكسار ، فنالها من التقتيل في ذعرها وتبددها شيء عظيم ، وحقت عليها الهزيمة مع ان قواتها تبلغ ضعفي قوات المسيحيين ، وجيش الموحدين النظامي لا يفوقه جيش في بسالته وتدريبه . فلا غرو ان يجعل النصارى ظفرهم مستمداً من الله ، فتنشأ عندهم اسطورة دينية يثبتها بعض المؤرخين تقول بانه ظهر في السماء ، قبيل المعركة ، صليب ساطع النور ، وتحتفل طليطلة كل سنة في ١٦ حزيران بعيد « انتصار الصليب » ، مع ان المراجع الوثيقة لا تذكر هذه المعجزة ، ولا ذكرها الفنس الثامن في روايته لاخبار المعركة .

على ان انكسار المسلمين ، وان بدا غريباً في ظاهره ، لا يلبث ان يصبح طبيعياً اذا نظرنا الى العوامل التي احاطت به ، واهمها تخاذل الجيش الاندلسي وانكفاؤه في اوائل المعركة حيث تصدعت الميمنة ، ثم تأثرتها الميسرة بفشل البرابرة ، وقلة ثباتهم امام شانجه السابع واجناد فرنسا والبرتغال والنافار . فاختل بذلك قلب الموحدين واشتد عليه الضغط من الامام والجانبين . ويروي ابن خلدون حادثاً آخر له اثر فعال في هزيمة الموحدين ، وهو ان صاحب لاون ، ويسميه مرة ليهوج ، ومرة البيوج ، قد مكر بالخليفة الناصر ، فقدم عليه فداخله ، واظهر النصح ، فبذل الخليفة له اموالاً ، فلما كانت وقعة العقاب غدر الاسباني به وكرّ عليه يقاتله برجاله بدلاً

من ان يناصره كما وعد. غير اننا لا ندري من اراد ابن خلدون بصاحب لاون لان الاسمين اللذين ذكرهما بعيدان في لفظهما عن اسم الفنس (ملك لاون) واسم اخيه شانجه Sancho الذي كان يحارب في صفوف المسيحيين يوم العقاب. اما الرواية الاسبانية فلم تشر الى هذا الحادث، وانما قالت ان الفنس التاسع ملك لاون لم يحضر بنفسه الحرب لخلاف بينه وبين ملك قشتالة على بعض الحدود، فاكتفى بان يبعث اخاه شانجه مكانه.

فاذا صحت رواية ابن خلدون، فان الناصر لا يعذر في اتكاله على مواعيد الامير الاسباني دون ان يحتاط لاضرارها، متوقعاً الكذب والخداع فيها. وكذلك كان قصير الرأي في استسلامه لصائح ابن جامع، اذ حبس جيوشه ثمانية اشهر على حصار شلبطرة بدلاً من ان يقودها الى طليطلة فيسحق مملكة قشتالة قبل ان يتمكن الفنس الثامن من جمع كلمة الامراء المسيحيين على مساعدته، والاستفادة من نشاط الاحبار ودعوتهم الى الائتلاف تحت راية الصليب. فان زوال امارة قشتالة، وهي اعظم دولة في اسبانية، يفضي، لا جرم، الى انهيار سائر الامارات الاسبانية الواحدة تلو الاخرى. فان القوات التي حشدها صاحب مراكش لمحاربة الاسبانيين جعل منها اضخم جيش عرفته القرون الوسطى. ولو احسن الحيلة والتدبير لكان من الممكن الا يقف في فتوحه عند الولايات الاندلسية التي غنمها المسيحيون وضموها الى ممالكهم، بل يتخطاها الى الاراضي الاسبانية فيبسط عليها سلطانه.

ويلام ، وهو القائد الاعلى ، لغفلته عن حركة العدو وانتقاله خفية من جبل الشارات حتى استطاع ان ينفذ الى أبدة ، ويحتل في رباها مواقع تفضل مواقع المسلمين . ورأينا الناصر يدعوه الى الحرب فيأباها في اليوم الاول والثاني من وصوله طلباً للراحة . ولا يجرؤ الناصر على مهاجمته ، مع علمه بتعبه ، لمناعة روابيه .

ويؤخذ على الموحدين ما يؤخذ على المرابطين من سياسة الاستئثار بالحكم والنفوذ في الاندلس ، فأساؤوا الى ابنائها ، وحركوا الضغينة في نفوسهم ، فقدموا معهم الى الحرب وهم مرصدون لمكروههم . فكان الجيش الاسلامي دون الجيش المسيحي نشاطاً وأئتلافاً وحماسة للدين ، فدارت عليه معركة العقاب بشؤم الطالع ، فمحقت قواه الجبارة ، واضعفت سلطان الموحدين فمالت بملكهم الى الغروب ، وكانت للمسلمين نذيراً بزوال كلمتهم عن الاندلس ، وللمسيحيين بشيراً بانتشاع خطر الاسلام عن اسبانية جمعاء .

يوم قرطبة

بدأت ماتم القواعد الاندلسية بسقوط طليطلة (١٠٨٥) ثم بسقوط سرقسطة (١١١٨). وبعدهما استخذت بطليوس لملك لاون (١٢٣٠). واليوم دور قرطبة ام العواصم، وحاضنة الاندلسيين في الغرب، تخط الطريق لسقوط بلنسية (١٢٣٨) واشبيلية (١٢٤٨) الى ان يحين مأتم غرناطة آخر معقل عربي في اسبانية المسلمة؛ فيغني الشاعر الاندلسي مرثاته الاخيرة، يبكي بها نعيم الفردوس المفقود.

وجاء دور قرطبة بعد ان مكثت خمسة قرون وربع قرن في حوزة الاسلام، ترتد المسيحية عن ابوابها، وامام حصونها تنحل عزائم الاسبانيين. شهدت عز عبد الرحمن الناصر والحاجب المنصور، فكانت كالعروس، حيناً بعد حين، تجلى لتزف في زينتها

لنصر جديد. ما اكثر اعراس قرطبة، وابهج افراحها! الملوك تأتيها خاضعة، واليها ترسل الهدايا خاطبة ودها. قوافل السبايا والغنائم معروضة في اسواقها، يكاد لا ينقطع النداء عليها.

قرطبة دار العلوم، ومعهد الفنون والصنائع، حرم الجامع الكبير ذي السواري، والدة الزهراء ذات القصور والحدائق، تشع انوارها على اروبة في دياجير القرون الوسطى، هي الآن في مأتم بعد عرس، كما قال البحتري في الايوان.

زالت عنها كلمة الموحدين بعد ان بات سلطانهم يتهاوى اثر موقعة العقاب، وران عليها سلطان محمد بن هود، من اعقاب امراء سرقسطة السالفين، يضم اليه معها مُرسية (Murcie) وجيّان وماردة (Mérida) وبطليوس، متوسلاً بنقمة الاندلسيين على الموحدين، منادياً بكفرهم، داعياً الى مقاتلتهم قتال الكفار، وتخليص الاندلس من طغيانهم. وتلقب بالمتوكل على الله، ولبس السواد شعار العباسيين، معترفاً بخلافتهم، راجعاً بامارته اليهم، ليسترضي جمهور المسلمين بعد خلعه خلافة المغاربة اهل التوحيد. فنجحت سياسته، واقبل على مبايعته وطاعته اكثر الولايات الاندلسية.

ولكنه كان مضطراً، مع مغالبته القوى الموحدية في دفاعها عن بقية سلطانها، الى مقاومة الامراء المسيحيين، وهم لا يفترون عن مناصبة الاندلس والافساد فيها. فلم يطق منع الفنس التاسع ملك لاون ان يفتح بطليوس وماردة وغيرهما من المدن والحصون. إلا انه تمكن من الايقاع بالموحدين، يساعده على ذلك ما بينهم

من شقاق ، اذ كان يتنازع الخلافة اميران منهم ، احدهما المأمون من ولد يعقوب المنصور ، والآخر المعتصم بالله يحيى بن محمد الناصر . فكان ابن هود يناجز المأمون ، ويعين عليه المعتصم احياناً ، حتى استطاع ان يستلب من يده حكم الاندلس بلداً بعد بلد ، وحصن غرناطة في الجملة (١٢٣٠) ، فالجأه الى استعانة النصارى ، فعل المرابطين والامويين من قبل . فصار لدى خليفة الموحدين اثنا عشر الفاً من مرتزقة القشتاليين لحماية مراكش ورد المعتصم عنها . ونزل المأمون لملك قشتالة ، مقابل هذا المدد ، عن بعض الحصون المتاخمة ورضي بان تبنى كنيسة في مراكش ، وان يؤذن للنصارى بقرع النواقيس . ووعد بان يدفع عنهم كل مساءة في مملكته ، واذا اسلم نصراني لا يُقبل اسلامه ، وانما يقبل المسلم اذا ما احب ان يتنصر .

غير ان الحامية القشتالية لم تقوَ على منع المعتصم من افتتاح مراكش ، وتهديم الكنيسة التي بنيت فيها ، وتقتيل النصارى ونهب اموالهم . وكان المأمون يومئذ في الاندلس ، وليس بيده من مدنها الكبرى غير اشبيلية ، فعبر الزقاق يريد انقاذ عاصمة المغرب ، فلم يكتب له التوفيق في محاربة المعتصم ، فمات فجأة (١١٣٢) وبويع بعده ابنه ابو محمد عبد الواحد فتلقب بالرشيد . وتابع مساورة المعتصم الى ان توفي هذا بفاس (١٢٣٦) .

وانقطع ملك الموحدين ، على اثر وفاة المأمون ، عن سائر الولايات الاندلسية خلا اشبيلية وما اليها . فعاد سلطان محمد بن هود يشمل مالقة (Malaga) والمرية (Alméria) وغرناطة

وقرطبة ومرسية ، ينافسه سلطان بني الاحمر في ارجونة (Arjona) ووادي آش (Guadix) وبيّاسة (Baéza) وجيّان (Jaên) . وبنو الاحمر قبيلة عربية ترفع نسبها الى الخزرج ، وعميدها محمد ابن يوسف النصري . فاتفق هذا مع الاسبانيين على ان يمدوه بجيش لقتال ابن هود ، وان ينزل لهم عن بسائط الاندلس اذا استتب امره فيها . فاغتنم هؤلاء الفرصة ، مستفيدين من خلاف الامراء المسلمين ، وانتقاض بعضهم على بعض ، فحشدوا جيوشهم ، وراح جايم (Jayme) ملك ارغون يعيث في امارة بلنسية ، وفرديناند ملك قشتالة ولاون يخبط بعساكره الى قرطبة . وكان هذا قد بلغ من القوة شيئاً عظيماً اذ تمكن ان يجمع قشتالة ولاون مملكة واحدة بعد تنابذهما ، لارتباط نسبه بملكيهما ، وانتقال ارثهما اليه . ذلك انه عندما توفي الفنس النبيل صاحب قشتالة ، صار الملك بعده الى ولده هنري ، وكان قاصراً ، فتولت الوصاية عليه اخته برنجاريا . ثم توفي سنة ١٢١٧ فانتقل العرش اليها عملاً بوصية والدها . وكانت تعلم ان القشتاليين يكرهون حكم النساء ، فلم تشأ ان تترك الملك مزعزعاً . وكان لها اولاد من زوجها الفنس التاسع ملك لاون ، وقد طلقها هذا نزولاً عند امر البابا لما بينهما من قرابة مانعة ، إلا ان الاولاد اعتبروا شرعيين . فاستدعت ابنها الاكبر فرديناند وتنازلت له عن العرش ، فاغتبط القشتاليون لصنيعها ، وبايعوا الملك الجديد وقدموا له الطاعة (١٢١٧) . ولما توفي الفنس التاسع ملك لاون (١٢٣٠) تحول عرشه الى ولده فرديناند الثالث فاتحدت قشتالة ولاون

وزال ما بينهما من شقاق وخصام . وخفق لواء الملك الجديد على دولتين قويتين ، تنضم اليهما امارات استرامادورة وجليقية واشتوريش . فأصبح خطره عظيماً في غاراته على الاندلس الاسلامية ، واتجاه انظاره الى ام عواصمها قرطبة ، بعد ما تم له الاستيلاء على حصن ابدة (Ubéda) (١٢٣٣) .

وكان المتوكل بن هود يزحف يومئذ الى غرناطة ليحارب منافسه ابن الاحمر ، فلم يفت الاسبانيين الذين كانوا في ابدة ان ينتهزوا الفرصة ، وقد علموا من الاسرى المسلمين ان قرطبة قليلة اسباب الدفاع ، وان افتتاحها امر ميسور . فادلجت منهم كوكبة صغيرة ، يسترها ظلام الليل ، ويخفي حركاتها انهمار المطر ، حتى بلغوا الضاحية الشرقية من عاصمة المروانيين ، وارشدهم الاسرى الخائنون الى المواقع التي يصلح منها الصعود الى السور . فنصبت السلالم ، وتسلق الجدران جماعة من الفرسان الاباسل . وكانوا قد استمالوا بعض حراس الابراج بالمال ، فكتموا امرهم عن الآخرين ، واوهموهم ، عندما سمعوا خفق اقدامهم ، انهم سرية آتية للتفتيش ، فخدعوهم بذلك ، ومكنوا اعداءهم من دخول احد الابراج ، فامتلكوه ، وقتلوا حراسه . ثم انحدروا الى باب قريب ، ففتحوه لرفاقهم ، فتسللوا منه الى احياء الضاحية يفتكون بالسكان الآمنين فتكاً ذريعاً ، حتى تنفس الصبح وانتشر الخبر ، فثارت الحامية في وجه المغامرين فقاتلتهم حانقة ، فطردتهم من الشوارع ، والجأتهم الى التحصن بالبرج الذي سقط في ايديهم . فعلموا ان محاولة افتتاح مدينة عظيمة كقرطبة ، بعدد قليل من الرجال ، ضرب من

الجنون ، فهي من نفسها وحدها في جحفل لجب ، على حد تعبير ابي تمام . فأرسلوا يستنجدون قائد منطقة قرطبة الفابيريز ذا كاسترو . وبعثوا رسولاً الى الملك فرديناند في لاون يسألونه الاسراع بالمجيء .

وما كاد يصل الرسول الى القائد الاسباني حتى خف اليهم بما استطاع جمعه من حاميات الحصون والقلاع ، فأدركهم على عجل ، وثبّت مقامهم في البرج يردون عنه المهاجمين ، ويشرفون على قسم من الضاحية ، الى ان تأتيهم نجدة الملك وجيشه ...

ولم يكن فرديناند يتوقع هذا التوفيق العجيب في قرطبة بكوكبة من الفرسان ، فبادر اليها بثلاثين فارساً ، بعد ما اصدر اوامر بحشد العساكر من المدن والقرى ، واستدعاء جماعات الفرسان المنظمة ، وان يتبعه الحشد دون ابطاء . ثم سارع بفرسانه الثلاثين الى قرطبة ، فابتهج الجند لرؤيته ، واشتدت ظهورهم في مقاومة المسلمين . فاحس هؤلاء الخطر المهدد ، وتيقنوا انه اذا لم يتداركهم ابن هود بقواته ، دارت عليهم الليالي ، وآضت قاعدة الملوك في حوزة الاعداء . فطيروا الرسل الى المتوكل يستحثونه لانقاذهم قبل فوات الاوان .

ولولا خور العزيمة ، وعقم في الرأي لكان بوسعه ان يتدارك العاصمة ، ويمنع استخذاءها . فالظاهر ان الانكسارات التي مني بها في محاربة المسيحيين ، وما ناله خصوصاً من فرديناند الثالث ، اضعف همته ، واوقع هيبة الاسبانيين في نفسه ، فلم يجرؤ على تلبية صوت قرطبة ، قبل ان يتبين قوة اعدائه ، ومبلغ ما جردوا لها من العساكر ، مع ان الموقف حرج ، فلا يحسن باميرها ان يتركها تلاقي وبالها ، وهو

قريب منها ، ولديه جيش كبير يستطيع الدفاع عنها . ولم يقتصر على تلكؤه الذميم ، بل قاده قصر الحيلة ، وسوء طالع الاندلس ، الى ان يعهد في استطلاع احوال العدو الى فارس جليقي اسمه سوارز ، كان الملك فرديناند قد نفاه عن قشتالة فجاء برجاله الى المتوكل ، وجعل سيفه في خدمته ، شأنه شأن كثير من الفرسان المسيحيين والمسلمين اذا خرجوا من بلادهم ناقمين على امرائهم . على ان هذا الفارس الجليقي لم يكن لينسى ان المهمة التي ندبه اليها ابن هود بكل سذاجة ، يتوقف عليها خذلان ملته ، وابناء قومه ، فغلت في صدره عصبية الدين والوطن ، ورأى الحال مؤاتية لاسترضاء مليكه والرجوع الى ارضه . فوعد المتوكل بالخبر اليقين ، وسار الى فرديناند ، فاطلعه على واقع الامر ، وطلب اليه ان يضاعف نيران الاحراس ليلاً ليوهم المسلمين بكثرة جيشه ، واتساع المساحة التي يشغلها في نزوله . ثم عاد الى ابن هود ، وطفق يبالغ له في وصف قوة العدو ، وحسن سلاحه ، والخطر الذي ينتظره اذا حدثته النفس بلقائه . واراه بعينه اتساع نيران الحراسة وامتداد لظاها . فاستطير المتوكل ، وداخله الذعر ، فخام ولم يجسر على الاقدام ، ونسي انه مسؤول عن مصير ام المدائن .

وفيما هو على هذا الحال من الاضطراب جاءه رسول من ابي جميل زيّان امير بلنسية ، يستغيثه على جايم ملك ارغون . وكان قد اناخ عليه بقواته ، فآثر ابن هود ان يدلف الى غوث بلنسية لعله ينقذها من الارغونيين ، فيضمها الى مملكته ، ويتقوى بها ، ثم يرتد الى قرطبة ، فيخرج منها القشتاليين . ولكن التقادير

جرت بغير ما في الحسبان ، فانه ما كاد يبلغ المرّية حتى اغتيل فمات خنقاً ، ولم تنج بلنسية من يد ملك ارغون ، وتركت قرطبة وحيدة ، تدافع بشهامة هجمات الاعداء ، وتلقى الهلاك باسلة لا تسلم إباءها للخنوع ، الى ان خاب املها من المتوكل ، وانقطع عنها رجاء كل نجدة ، فعلمت ان المقاومة اصبحت لا تجدي فتيلاً ، وانما هي انتحار ليس غير ، فالافضل ان تفاوض العدو ، فعساها تنال منه شروطاً شريفة مقبولة . بيد ان العدو كان شديد التعنت والاستكبار ، خصوصاً بعد ان صار النصر ملك يديه ، وزال خطر المتوكل عنه . فأبى الا ان يسوم الاندلسيين ظلامة ، فأعطاهم الامان على نفوسهم دون املاكهم واموالهم . فاضطر اهل قرطبة الى القبول مكرهين ، وفتحت المدينة الكبرى ابوابها للظافرين ، فدخلها فرديناند الثالث ملك قشتالة ، لاون بفوارسه على اصوات الابواق والطبول في ٢٩ حزيران سنة ١٢٣٦ (٢٣ شوال ٦٣٣) بعد ان كابدت حصار ستة اشهر متواليات ، فسقطت بها اعظم قاعدة اندلسية في ايدي المسيحيين ، وخرج المسلمون منها منكسي الرؤوس ، متخلين عن اموالهم ، هاربين الى البقية الباقية من المدن الاسلامية في الاندلس .

ومشى الفاتحون الى المسجد الكبير يرتلون اناشيد الشكر ، فحولوه كنيسة ، ورفعوا الصليب عليه ، واقاموا فيه الصلوات والقداديس . وجيء باجراس شنت ياقب الى فرديناند ، وكانت لم تزل محفوظة من عهد الحاجب المنصور حين غزا مدينة القديس

يعقوب (٩٩٧)[١] ودمرها، وانتزع اجراس كنيستها الشهيرة، واجبر الاسرى المسيحيين ان يحملوها على عواتقهم الى قرطبة. فأمر فرديناند ان تعاد هذه الاجراس الى كنيسة شنت ياقب، محمولة على اكتاف الاسرى المسلمين، فنقلت الى موطنها بعد غربة طويلة، وحررت بعد اسر امتد نحو ثلاثين ومائتين من السنين. فخرجت شنت ياقب للقاء اجراسها تحيط بحامليها مهللة مبتهجة، كما خرجت قرطبة بالامس البعيد تستقبل هـذه الاجراس على اكتاف اصحابها، وهي نشوى من خمرة الظفر العابق. فأعاد التاريخ نفسه، ولكن بصورة معكوسة، فسبحان مغير الاحوال.

١ راجع معارك العرب في الشرق والغرب، ص ٣٠.

فاجعة غرناطة

لم يبق في ايدي المسلمين من الاندلس العربية ، بعد انهيار دولة الموحدين ، ومقتل محمد بن هود ، وسقوط قرطبة وبلنسية واشبيليه وسواها من المدن والقلاع ، الا مملكة غرناطة ، ويشمل حكمها كورة البيرة (Elvira) ومنها قطر لوشه (Loja) على نهر غرناطة المعروف بنهر شنيل (Xenil) . ومن اعمالها وادي آش (Guadix) والمنكّب (Almunécar) وجبال البُشُرات (Alpujarras) وبسطة (Baza). واشهر مدنها التجارية على ساحل البحر مالقة (Malaga) والمرية (Alméria).

ومع ان هذه الامارة صغيرة بمساحتها ، فقد تسنى لها ان ترزق الحياة مدة مائتين وخمسين سنة ، على ما كان يحدق بها من خطر الدول

المسيحية . ذلك بان الملوك الاسبانيين كانوا يشغلون عنها بمحاربة بعضهم لبعض : حروب كادت تستغرق النصف الثاني والنصف الاول من القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ولا سيما نضال قشتالة وارغون . ثم انهم تعودوا ان ينتفعوا من اموال المسلمين ، فكانوا يجدون لذة في ضرب الجزية عليهم واعتبارهم من اتباعهم ، كما كان الامراء المسلمون يجدون هذه اللذة من قبل ، فقيضوا لغرناطة عمراً مديداً ليتمتعوا النفس باستصفائها والاشراف عليها . اضف الى ذلك ان موقعها الطبيعي ، وما فيها من الحصون والقلاع والابراج ، يضمن لها ارهاق غزاتها . وهي على ضيق ارضها مكتظة بالسكان لان معظم المسلمين الذين هاجروا من الولايات الاندلسية التي استردها المسيحيون ، لجأوا اليها واتخذوها مقراً ، فلقيت فيهم عدداً عظيماً من المحاربين الاشداء يدافعون عنها الاسبانيين بحمية واستبسال . فاذا تكالب العدو عليها وأحست الضنك استصرخت سلاطين المغرب ، وفي مقدمتهم بنو مرين ، فيجيزون اليها جيوشهم لرد العاديات عن ارباضها . فظلت هذه المملكة الصغيرة بمأمن من الكارثة العظمى لا تخشى شرها ، حتى تم الاتحاد بين قشتالة وارغون سنة ١٤٦٩ ، فتزوج فرديناند الخامس ايزابلا الكاثوليكية ، واجتمعت دولتان قويتان على امارة بني الاحمر تصليانها الحرب العوان طوال عشر سنين . ورافق ذلك تضعضع في احوال غرناطة من خلافها الداخلي ، وانقسامها احزاباً تحترب وتتصارع ، ويفزع بعضها الى الملوك المسيحيين لمقاومة بعض . فمهدوا السبيل للنيل منهم ، وتغلب العدو على مدنهم وقلاعهم . فقد بات قصر الحمراء ملعباً لدسائس النساء

ومكايدهن ، فاشعل الثورات الاهلية ليستفيد منها الاسبان .

وكان من سوء الطالع ان يتولى امر غرناطة السلطان ابو الحسن علي بن الاحمر ، رجل لذات وشهوات ، فأهمل رعاية الجيش ، واقدم على قتل كبار القواد ليأمن انتقاضهم . فتراخت القوى العسكرية في الدولة ، وقل خطر حاميات الثغور . ولم يقتصر على هذا بل سلم زمام الاحكام الى وزيره ، وقعد عن الجهاد ، حاسباً ان النصارى لا يغزونه ، ولا تنقضي بينهم الفتنة . واحتجب في قصره عن الناس ليتفرغ لنسائه وملاهيه . فأنكر الخاصة والعامة ذلك منه ، وكثرت المظالم والمغارم على حد تعبير المقرّي . فاذا الثورة تتمخض في شعبه ، فتنتقض مالقة على حكمه ، وتبايع اخاه ابا عبدالله محمداً الملقب بالزغل ، فتنشب الفتنة بين الاخوين مدة ، ثم يخضع الزغل لاخيه ، وينقضي الخلاف ليقع بعده خلاف جديد اشد منه وانكر بين الابن وابيه . وذلك ان ابا الحسن في تهافته على اللذة كان يكثر من التسري بالجواري ، ليطيب له الاستمتاع . فوقع على جارية اسبانية اسمها ايزابلا ، فشغف بها شغفاً عظيماً ، واستولت على ارادته ، فحملته على ان يتزوجها ، واسلمت فسميت الثريا ، فأحلها المنزلة الاولى بين نسائه حتى انه قدمها على زوجه عائشة ، وهي بنت عمه السلطان ابي عبدالله الايسر . وشاء ان يجعل ولاية العهد لبعض اولادها ، فاشتعلت الغيرة في صدر عائشة ، وراحت تدس للثريا ، وتنصب لها اشراك مكايدها ، فانقسم خدام القصر على فئتين متنافرتين ، تميل الواحدة الى اولاد الحرة ، والاخرى الى اولاد الجارية . والشعب خارج القصر يتذمر على الوزير لجوره

واستبداده ، يطلب اقصاءه عن الحكم ، والسلطان لا يلبي له طلباً .

ولم تكن هذه الاحداث لتخفى على ملكي قشتالة وارغون ، او يفوتهما استغلالها ، وهما في زواجهما واتحادهما ، قررا ان يزيلا باقي كلمة الاسلام عن اسبانية .

وكان السلطان ابو الحسن قد استفزهما للجهاد في اعتدائه على الزهراء سنة ١٤٧٨ ، وهي تابعة لملكة قشتالة ، فحرضت بعلها على تجريد حملة صليبية ، لا تنثني إلا باخراج المسلمين من الاندلس . فتم تجهيزها سنة ١٤٨٢ (٨٨٧ هـ) فراحت توالي الغارات على مملكة غرناطة ، تفتتحها بلداً اثر بلد ، وتستنزل الحصون او تقذفها بالمدافع . وفي هذه السنة فرت عائشة من الحمراء ، ومعها ولداها ابو عبد الله محمد وابو الحجاج يوسف خوفاً من زوجها ان يفتك بهم نزولاً على رغبة حظيته الاسبانية . فقصدوا الى وادي آش يستثيرون الشعب ، وهو في جملته ناقم على ابي الحسن يمقت استهتاره وقعوده ، فمد اليهم يده وبايع ابا عبد الله خالعاً اباه . ثم قامت المرّية وبسطة وغرناطة بدعوة السلطان الجديد ، فهرب ابو الحسن الى مالقة ملتجئاً الى اخيه الزغل ، فاعصوصب الشر بين حزب ابي عبدالله وحزب ابي الحسن ، وفيهم الثغريون (سكان الثغر) وبنو سراج . فقد انتصر الاولون لابي الحسن ، والآخرون لابي عبدالله فكانوا يقتتلون في الشوارع والطرق حتى تركوا الفوضى منتشرة في البلاد . وتزعم الرواية العربية ان ابا عبدالله نكب بني سراج وافناهم ، على ان المستشرقين اوغست مولر وكليمان هيوار يضيفان هذه النكبة ، ان صحت اخبارها ،

الى ابي الحسن ، لان بني سراج كانوا خصومه وانصار ولده ، فلا يعقل ان ينكبهم ابو عبدالله ، ولعل الرواية العربية تخلط بينه وبين عمه ابي عبدالله الزغل . وعلى حوادث هذه النكبة بنى شاتوبريان قصته : آخر بني سراج .

وما زالت الحرب دائرة بين الابن وابيه حتى رجحت كفة الولد ، فأقام سريره في غرناطة ، واطاعته البلاد إلا مالقة والناحية الغربية .

وفي سنة ١٤٨٣ (٨٨٨ هـ) قصد المسيحيون مالقة وبلّش (Velez) في نحو ثمانية آلاف . وكان السلطان ابو الحسن قد اناخ على نواحي المنكّب لمقاتلة ولده ، فالتقاه ابو عبد الله في جند غرناطة والجهة الشرقية فهزمه ، في حين كان الزغل يقاوم الجيوش الاسبانية في مالقة ، ويردها خاسرة . فلما بلغ ابا عبد الله ان عمه الزغل انتصر على الاسبانيين في مالقة ، احب ان يكون له قسط من الجهاد الوطني والديني فحشد عساكره وخرج غازياً ، فتجمع عليه الاسبان في الجبال والاوعار ، فكسروه واخذوه اسيراً بعد ان قتلوا من الجيش خلقاً عظيماً . فاجمع امراء غرناطة واعيان الاندلس على ارجاع والده ابي الحسن ، فذهبوا الى مالقة وبايعوه . وكان قد ذهب بصره على اثر مرض يشبه الصرع اصابه . فرفض ان يقوم باعباء الملك وهو على هذه الحال ، واشار عليهم بان يبايعوا اخاه ابا عبد الله الزغل ، فبايعه الاندلسيون وقدموا له الطاعة . وانتقل ابو الحسن الى المنكّب فاقام بها الى ان مات .

واغار المسيحيون سنة ١٤٨٥ (٨٩٠) على غربي مالقة فدخل اهلها في طاعتهم . وحاصروا بعدها رندة (Ronda) فهدموا

اسوارها بمدافعهم ، وما انفكوا يضيّقون عليها حتى طلب اهلها الامان مستسلمين . ثم ان فرديناند رأى ان يضرب المسلمين بعضهم ببعض ، فيستفيد من شقاقهم وتحاربهم ، فبعث الى السلطان ابي عبدالله ، وهو اسير عنده ، فاستقدمه وخلع عليه ، ووعده بان يساعده على خلع عمه ، ويعيده الى عرشه . ثم اطلق سراحه وامده بالعساكر والمال ، فثار يطلب الملك ، وجاء بلّش فاطاعه اهلها ، ونأدى الخبر الى غرناطة فمال الى مبايعته اهل البيّازين (Albaycin) وهو حي من اقدم احياء غرناطة قائم في اعاليها على تل منحدر يشرف على المدينة ، بينه وبين التل الذي عليه قصر الحمراء فرجة صخرية . وفي البيازين قلعة حصينة تعرف بالقصبة القديمة . وكان اهل هذا الحي على جانب من الجهل ، كما يصفهم صاحب نفح الطيب ، فقاموا بدعوة ابي عبد الله ، وتبعهم بعض اهل غرناطة ، وهم يرجون الصلح مع المسيحيين على يد السلطان الاسير ، لما رأوا من عطف القشتاليين عليه . فوقعت الفتنة بين المسلمين ورُجمت البيازين بالحجارة من القلعة .

ثم جاء السلطان ابو عبد الله الى لوشة ، فظنوا انه اتى لمصالحة عمه الزغل . واذا صاحب قشتالة وارغون يدهم لوشة بجيش عظيم فيحاصرها . فخف اهل البيازين الى نصرة السلطان ابي عبد الله ، ولكنهم ما لبثوا ان تبين لهم ان السلطان كان على اتفاق مع الملك الاسباني ، ففتحت لوشة ابوابها لفرديناند (٨٩١) وهاجر اكثر اهلها الى غرناطة . اما ابو عبد الله فبقي فيها مع الاسبانيين ، فاثبت بذلك شائعة مواطئته لهم . وحقيقة الامر انه

ما حالفهم الا لاعتقاده انهم سيكونون انصاره على عمه فيستعيد منه العرش وان المسلمين يأمنون اعتداءهم في ظل ملكه لارتباطه بالصداقته معهم، خصوصاً بعد ما وعده فرديناند بان من يدخل في حكمه فهو في امـان تام . وعلى ذلك نشط الى بلش يدعو الناس لموالاته ويمنّيهم بصلح صحيح، فاقبل عليه جمع غفير ممن رغبوا في السلامة وكره القتال، وجاءه في الجملة اهل البيازين يدعونه الى حيهم، متجندين لنصرته والدفاع عنه، فانتقل اليهم على حين غفلة، ونزل في القلعة فانقسمت غرناطة قسمين، حزباً معه وحزباً مع عمه نزيل الحمراء . ولم يغفل ملكا قشتالة وارغون عن امداده بالجند والمال والقمح والبارود، فشبت في غرناطة ثورة اهلية كثر فيها النهب والتقتيل .

وفيما كان السلطان الزغل يدعو الاجناد والقواد من اهل بسطة ووادي آش والمريّة والمنكب لمساعدته وطرد ابي عبد الله من البيازين، بلغه ان الاسبانيين زحفوا الى مالقة بجيش عظيم، ونزلوا على بلش يحاصرونها في اذار ١٤٥٧ (ربيع الآخر ٨٩٢) فخف الى نجدتها بما اجتمع لديه من وفود وادي آش وجبال البشرات، فرأى العدو يواثبها براً وبحراً، وقد اخذ بخناقها من جميع الجهات . فوطن النية على منازلته مهما كلف الامر . واذا نبأ يأتيه من غرناطة بان العاصمة بايعت ابن اخيه ابا عبد الله، وان هـذا الامير استولى على قصر الحمراء، فانكسرت عزيمته، وانهزم بجيشه قبـل ان يلتحم مـع الاسبانيين، وسار الى وادي آش فنزلهـا وتحصن بها .

وما زال الاسبانيون يشددون الحصار على بلّش حتى طلب اهلها الامان ، ودانت لهم جميع البلاد بشرقي مالقة الا جبل فارة (Gibralfars) حصن مالقة المنيع ، فانه لبث يدعو للزغل ويدافع الاعداء متمرداً ، ومالقة اعظم فرضة تجارية حربية على باب المضيق ، تأتيها الامدادات من المغرب ، تنزل بها ثم تنتقل الى غرناطة . فكان من المعقول ان يوجه اليها فرديناند حملته ويفرغ منها قبل مهاجمة العاصمة ليقطع الصلة بينها وبين العدوة المغربية . فسير اليها جيشاً برياً واسطولاً بحرياً يضربان عليها نطاقاً عسيراً . فقاتل اهلها قتالاً مجيداً ، وسلط الحصن مدافعه على البر والبحر ، فمني الاسبانيون بخسائر جسيمة . غير انهم لم يحجموا عنها ، ولا فتر لهم نشاط ، بل لبثوا يقتحمون اليها المخاطر حتى دخلوا ارباضها وضيقوا دائرة الحصار وصاروا يقذفون عليها قنابلهم من مسافات قريبة ، فيدمرون الحصون والمنازل . فصبرت مالقة صبر الكرام على التقتيل والتخريب ، وانقطاع الامل من مساعدة سلاطين المغرب الى ان فني ما عندها من الطعام واكلت الخيل والحمير ، فعضها الجوع المرير ، وغلب عليها اليأس القاتل ، فاضطرت مكرهة الى الاستخذاء بعد منعتها ، فدخلها المسيحيون في آب ١٤٨٧ (شعبان ٨٩٢) وسقط في ايديهم حصنها المريد .

وتابع فرديناند غاراته كل سنة ، فكان يفتتح المدن والقلاع وهو يظهر الصداقة لابي عبدالله صاحب الحمراء ، ويدعي مناصرته على عمه ومنافسه في الملك ، وانما وكده ان يعزل غرناطة عن

جميع المدن والولايات الاسلامية ، فيسهل عليه امتلاكها اذا حاصرها ، ويحول دون وصول النجدات اليها . ولا يخفى ما في هذه الخطة من دهاء وحسن تدبير . فلما كانت سنة ١٤٨٩ ، (٨٩٤ هـ) نهد بجيشه الى بسطة يريد انتزاعها من الزغل ، فحشد السلطان الجيوش من وادي آش والمرية والمنكب والبشرات ، فوقعت بينهم معارك كثيرة كان النصر فيها للاسبانيين . وتضايق اهل بسطة من الحصار والجوع ، فطلبوا الامان ، وخضع الزغل لفرديناند وبايع له على ان يبقى تحت طاعته . فدخل الاسبان بسطة في كانون الاول ١٤٨٩ (محرم ٨٩٥) واقاموا في كل قلعة قائداً مسيحياً . ودانت لهم وادي آش والمنكب والمرية ، فتم لفرديناند ما اراده ، ولم يبق خارجاً عن حكمه سوى غرناطة وقراها وجبال البشرات . فعندئذ تبدلت سياسته نحو صاحب الحمراء ، فأظهر الميل لابي عبدالله الزغل ، ودعا الناس الى الالتفاف حوله ، وبذل المال لبعض القواد المسلمين فباعوه ضمائرهم ، وجعلوا رجالهم في خدمته توفيراً لرجاله . فسقطت امام وجهه جميع الحواجز التي كانت تعوق زحفه الى غرناطة ، فكتب الى صاحبها يستنزله عنها ، واعداً اياه بان يضعه تحت حمايته ، ويعطيه مالاً جزيلاً . ولكنه لم ينتظر الجواب بل دلف اليه بعساكره لينجز الامر سريعاً . فجمع ابو عبدالله اعيان المدينة وقوادها ، ومندوبين من عامة الشعب ، واطلعهم على كتاب فرديناند ، طالباً منهم ان يبدوا اراءهم في الجواب عليه ، فاما ان يرغبوا في الجهاد والدفاع عن دينهم واستقلالهم ، واما ان ينزلوا على حكم المسيحيين . فاتفقوا باجمعهم

على الجهاد المستميت . فأرسل الى فرديناند يبلغه رفض طلبه والاستعداد لقتاله . فمشى الملك الاسباني الى مرج غرناطة فاحتله بجيشه ، وبعث الى سكان العاصمة يهددهم بافساد زروعهم ، اذا اصروا على مخالفته ، فلم يجد عندهم غير الصلابة والاباء . فانتسف الزرع كله ، وهدم بعض الحصون ، إلا انه احجم عن ضرب الحصار لقلة في الذخيرة والجند ، وآثر ان يرتحل الى بلاده ، مرجئاً امر غرناطة ليوم آخر . وما كاد يبتعد حتى عادت بعض الجهات الى طاعة صاحب الحمراء ومنها جبال البشرات . وكان الزغل قد استقر بالمرية ، فدلف اليه ابن اخيه بحملة من غرناطة ليسترد الاماكن التي سلمها للعدو ، فتلقاه عمه بجيش فيه قوات من النصارى الاسبانيين ، فنشبت بينهما معارك دامية لم يترجح النصر فيها لاحد منهما . وفي اثنائها خرج فرديناند بجيش انضم اليه المدجّنون[1] والخائنة والمرتدون[2] ، فقصد الى وادي آش واجلى عنها المسلمين . فلما بلغ خبره السلطان الزغل ، خاف على نفسه لمصادقته الاسبانيين وهم اليوم ينفون ابناء ملته عن ديارهم ، فكره البقاء في الاندلس ، فعبر البحر الى وهران ، ثم الى تلمسان ، واستقر بها بعيداً عن عرشه وسلطانه .

وعاد ابو عبدالله الى غرناطة يتأهب للقاء العدو بعد ان اصبحت العاصمة الهدف الوحيد لانظار ايزابلا وفرديناند ، وهيهات ، لا يطمئن

١ هم المسلمون الذين يعيشون في بلاد النصارى ولهم عليهم حق الحماية والذمة .
٢ المرتدون : النصارى الذين اسلموا ثم ارتدوا الى النصرانية .

لهما فتح ما دام المسلمون معتصمين بالحمراء. فيكفي ان يقع من الحوادث الداخلية ما يشغلهما حيناً عن الولايات المفتتحة حتى تنتقض عليهما، وتعود منضمة الى غرناطة، ناشدة حريتها واستقلالها، فلا الفتح مكفولاً ولا النصر سالماً، او يندك المعقل الاخير لدولة الاسلام في الاندلس. وعلى هذا، صمم العاهلان ان يضربا الضربة الحاسمة ما دام الزمان مؤاتياً، فيأمنا من مفاجآت الغد. فنهضا الى حشد العساكر من قشتالة وارغون ولاون وجليقية واشتوريش وسواها، فتم لهما جيش لهام، فيه زهرة الفروسية الاسبانية، يترأس اقسامه الاحبار والقوامس، وتنتشر فوقه رايات الصليب والصور المقدسة، ومعه من المؤن والمدافع والسلاح مقادير عظيمة تنذر بحرب ضروس لا هوادة فيها. وكان فرديناند وايزابلا يقودان هذه الجيوش بنفسيهما، ويتعهدان سيرها ونزولها. فزحفا بها في اذار ١٤٩١ (جمادى الآخرة ٨٩٦) الى مرج غرناطة الجنوبي (La Véga) ونصبا الآت الحصار على العاصمة، وقذفا حصونها بالمدافع، ولكنها كانت منيعة، فلم يهن جانبها ولا تثلمت ابراجها. فعلم الاسبانيون ان الحصار طويل لا ينقضي امده الا بعناء شهور. فامرت ايزابلا ببناء مدينة مقابل غرناطة تناوئها مدة الحرب الى ان تظفر الواحدة بالاخرى. وهذه الخطة اخذها الاسبانيون عن العرب عندما يطول الحصار. فبنيت المدينة وسميت شنتفي (Santa-Fé) اي الايمان المقدس، فنزلتها العساكر الاسبانية مستظلة بحصونها، فكان في ذلك بلاغ للغرناطيين بان هذه الحملة تختلف عن الغارات السابقة، فما تنتهي باتلاف الزرع وامتلاك بعض الحصون.

فوطنوا النفس على الصبر والجلاد ، ووقف القواد والاشراف بجانب السلطان ابي عبدالله يشددون عزيمته ، ويدعونه الى الثبات . فصبرت غرناطة على الحصار وقصف المدافع ، رابطة الجأش ، عنيدة المراس ، غير ان الميرة عندها لم تكن تكفيها سوى مدة قصيرة ، والحصار الخانق يمنع الوارد اليها من الخارج ، وليس لها باب مفتوح الا من ناحية جبل شُلّير (Sierra Névada) الى البشرات تأتيها منه المؤونة رشحاً لوعورة المسالك . فكان الضيق يدفع اهلها حيناً بعد آخر الى ترك الاسوار والحصون لمنازلة العدو فتقع معارك دامية يستبسلون فيها مقاتلين قتال الضواري ، فيسيل مرج غرناطة دماً ، ويكتسي بالجثث والهام . وكانت ايزابلا تتعهد الجرحى الاسبانيين بنفسها ، تؤاسيهم وتضمد كلومهم ، وتحث الاجناد على الصبر وحسن البلاء . فتوالت المعارك بين الفريقين رابية الخسائر ، والزاد والرجال في غرناطة قليل ، والعدو وافر العدد والذخائر ، فلا بد ان يفضي الامر الى معركة فاصلة تنكسر فيها شوكة الغرناطيين ، ويستطيل عليهم الاسبان بقواتهم الجرارة ، فيضطرونهم الى الانقباض وراء الاسوار لا يجرؤون بعدها على طلب القتال . فيعود الحصار باثقاله ويشتد الجوع على المسلمين ، فيزداد العدو طمعاً فيهم ، ويفر من المدينة خلق الى جبال البشرات . فدعا السلطان ابو عبد الله رجال الدولة واهل المشورة ، يستطلع آراءهم فيما ينبغي عمله ، فاتفقوا على اسلام البلد حفاظاً على النفوس ان تهلك حيث لا يجدي الهلاك . فاختاروا وفداً من رؤساء الجند للمفاوضة ، فخرجوا الى معسكر الاسبانيين ، فاستقبلهم فرديناند وايزابلا بحفاوة ، فعرضوا عليهما

اسلام العاصمة على شروط فيها الامان للمسلمين . فقبل العاهلان دون تردد ان تفتح المدينة ابوابها صلحاً ، ووضعت معاهدة الاستسلام وهي تتضمن سبعة وستين شرطاً على قول المقري .

ومن النظر الى هذه الشروط يتبين ان المسلمين فاوضوا اعداءهم مفاوضة الند للند لا مفاوضة المغلوب للغالب ، وان العاهلين الاسبانيين كانا متساهلين الى حد بعيد تخلصاً من هذه الحرب الطويلة ، ووصولاً الى الغاية التي يتوخيانها . ولعل فرديناند كان يضمر وراء هذا السخاء خطة معينة ينوي تنفيذها عندما يصبح امر غرناطة في يده ، وتسرّح جنود المسلمين ، وتؤخذ منها قلاعها . فقد جاءت شروط المعاهدة في مصلحة المنكسرين اكثر منها في مصلحة الظافرين . ولا يرجو مقهور ان ينال من قاهره شروطاً شريفة افضل منها تصون حرية الدين وحرية النفوس معاً . فهي تنص من الناحية الدينية على انه : لا يجوز للجنود المسيحيين ان يدخلوا المساجد الا باذن من الفقهاء ، وتبقى المساجد والاوقاف كما كانت . ولا يمنع مؤذن ولا مصلٍ ولا صائم عن اموره الدينية . وكل مسيحي يضحك منهم في اثناء اقامة شعائرهم يعاقب . لا يقسر من اسلم من النصارى على الرجوع الى دينه ، واما من تنصر من المسلمين فانه يوقف اياماً حتى يظهر حاله ، ويُحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى ، فان ابى الرجوع الى الاسلام يترك على ما اراد .

وتنص من ناحية اخرى على حماية النفوس والعادات والمنازل والاموال ، فلا يجوز للعساكر المسيحية ان تدخل بيوت المسلمين

او تأخذ منها طيورها ومواشيها، او تقيم فيها الولائم والمراقص على كره من سكانها. ولا يسمح للجنود الاسبانيين بان يصعدوا الى السور الذي يفصل القلعة عن البيّازين لئلا يستطلعوا على دور المسلمين. ولا تخترق القوات المسيحية مدينة غرناطة يوم دخول العاهلين الى الحمراء، وانما تسير في طريق منحرف خارج الاسوار، مراعاة لشعور الغرناطيين. ومن هرب من اسارى المسلمين ودخل غرناطة فلا سبيل عليه لمالكه ولا لسواه. ولا يعاقب من قتل نصرانياً ايام الحرب ولا ترد منه الاسلاب التي غنمها، ولا يؤخذ احد بذنب غيره. ويخيّر المسلم في البقاء او في السفر الى المغرب وافريقية، فمن آثر البقاء، ورضي ان يكون من رعايا صاحبي السمو الملكي، يبقى له سكنه وماله وعقاره، ولا يؤدي من المغارم زيادة على ما كان يؤديه للامراء المسلمين، وترفع عنه جميع المغارم والمظالم المحدثة، ويسير في بلاد النصارى آمناً في نفسه وماله، ولا يجعل علامة يعرف بها كما يجعل اليهود والمدجّنون. ولا يحكم على احد منهم الا بشريعتهم لدى قضاتهم، ولا يولى عليهم نصراني او يهودي. ويحق للتجار المسلمين ان يسافروا ويعودوا متمتعين بالحرية والطمأنينة، فيمكنهم ان يعبروا بتجاراتهم الى افريقية كلها، وان يتنقلوا في جميع الولايات الخاضعة لصاحبي السمو، ولا يؤدون من المكوس زيادة على ما يؤديه التجار المسيحيون. ويجب ان تكون اسواق المسيحيين ومجازرهم منفصلة عن اسواق المسلمين ومجازرهم لكي لا يحصل اختلاط في البضائع واللحوم. ويستقل المسلمون بمياههم وانابيبهم، فلا يحق للمسيحيين

ان يشربوا منها او يغسلوا بها ثيابهم . وان صاحبي السمو وقوادهما الاكارم يراعون المسلمين ، ويعاملونهم معاملة الاتباع الاوفياء .

اما من آثر الهجرة على البقاء فلا يمنع ، وتنقله الى العدوة الافريقية ، في مدة معينة ، مراكب صاحبي السمو ، ولا يلزمه إلا الكراء ، ويحق له ان يأخذ معه جميع امواله : ذهبه وفضته وحلاه ، وبضاعته وسلاحه ، ما عدا الاسلحة النارية . ومن يتأخر عن السفر في المدة المعينة ، يعطي عندما يسافر عشر ماله والكراء . واذا لم يطب المقام للمسلم الاندلسي في المغرب وافريقية ، واحب العودة الى غرناطة ، يسمح له بذلك في مدة ثلاث سنوات من سفره ، ويحق له ان يتمتع بجميع الذمم التي تنص عليها المعاهدة .

ويشترط العاهلان الاسبانيان مقابل ذلك ان ينتقل ابو عبدالله سلطان المسلمين باهله وحرسه من الحمراء الى البشرات ، وتكون سكناه بأندرش (Andaraxe) ، وان يُستوثق خمس مائة من اعيان غرناطة رهناً حذار الغدر والعصيان .

وخطّ فرديناند وايزابلا اسميهما تحت هذا القسم :

« نؤكد ونقسم بايماننا وكلامنا الملوكي اننا نحافظ ونأمر بالمحافظة على مضمون جميع ما هنا من كل شيء وكل جزء ، الآن وفيما بعد ، الآن وفي كل آن . »

وابرم الشروط بعدهما ابو عبدالله وزعماء المسلمين ، فتوقفت الاعمال الحربية في كانون الاول سنة ١٤٩١ (صفر ٨٩٧) . وفي اليوم الثاني من كانون الثاني ١٤٩٢ (٢ ربيع الاول ٨٩٧) فتحت غرناطة ابوابها فدخلها صباحاً فرديناند الخامس وايزابلا الكاثوليكية

بموكب حافل ، فسارا تواً الى الحمراء . وكان قائد القلعة ينتظرهما على عتبة الباب فقدم لهما المفاتيح ، فسلماها للكونت تنديلا (Tendilla) وجعلاه قائداً عاماً لمملكة غرناطة . ثم رفع الصليب الفضي وعلم قشتالة على برج فيلة (La Vela) اعظم ابراج الحمراء ، واحتلت رجالة الجنود الاسبانية جميع الاسوار والبروج .

وكان السلطان ابو عبد الله قد غادر القلعة قبل دخولهما العاصمة فاجتاز ساحة الاسود كسيراً منخلع الفؤاد ، يسير مطرقاً الى منفاه وبجانبه امه عائشة صامتة ، قاطبة ، والناس وقوف في الشوارع والشرف يشيعونه بانظارهم منقبضين ، من بين راحم وناقم ، حتى اذا انعطفت به الطريق ، وكادت الحمراء تتوارى عنه ، ارسل اليها النظرة الاخيرة ، وهطلت عيناه بالدموع . فالتفتت اليه امه وقالت له بمرارة الشامت المتألم :

إبكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال

ولا يزال هذا الموضع يسمى الى اليوم « زفرة المغربي » .

واقام ابو عبدالله باندرش الى سنة ١٤٩٢ (٨٩٨ هـ) ، ثم عبر البحر الى المغرب ونزل بفاس فاتخذها مقراً حتى مات .

خلت غرناطة من ملوكها بني الاحمر ولكنها بقيت آهلة بالمسلمين ، يزاولون فيها اعمالهم مطمئنين الى عهد فرديناند ، حاسبين ان الاسبان مقيمون عليه طويلاً لا ينقضون شروطه ، فيتسنى لهم مع الزمن ان يجددوا قواهم ، ويستأنفوا جهادهم لاسترداد سابق عزهم وسلطانهم . فاذا كان ما نالهم من ذل وانكسار عقاباً سماوياً على آثام اقترفوها ، او اقترفها حكامهم وزعماؤهم ، فلن يتخلى الله

عنهم ، فيأذن ببقائهم خاضعين لحكم النصارى ، والنبوات التي يسمعونها من افواه الذين يقال ان لهم زلفى عند الله ، تبعث في نفوسهم املاً حياً وتبشر بقرب الخلاص ، وانتهاء العقاب .

ومهما تكن شروط العهد سخية شريفة فهي لا تعدو ان تكون شروط الغالب على المغلوب ، تطالعه ابداً بزوال دولته ، ووجوب خضوعه للمسيطر الغريب . وما تعودوا من قبل ان يخضعوا الا لابناء ملتهم ، بل كانوا يتبرمون بحكم سلاطين المغرب ، ويعتبرونهم دخلاء عليهم ، مع انهم مسلمون ويتكلمون العربية ، فكيف يرضون حكم الاسبانيين وهم غرباء عنهم في الدين والجنس واللسان. فلماذا لا يسعون بكل ما لديهم من الوسائل لتحطيم هذا النير الثقيل ؟ فعهد فرديناند قد ترك لهم الحرية في السفر الى الامصار الافريقية ، لتعاطي التجارة ، فبوسعهم ان يتصلوا بسلاطينها ، ويحرضوهم على تجريد حملة قوية تنقذ الاندلس المسلمة . وما يمنعهم ان يستنجدوا المماليك في مصر ، او يفزعوا الى الدولة العثمانية وهي في فتوتها ونشاطها ، وإبان مطامعها . ممالك اوربة تداريها وتخشاها بعد ان واتاها الحظ ، فافتتحت القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، وجعلتها قاعدة لها ، فجثمت على الشاطئين ، بيدها مفاتيح الشرق والغرب . دولة مسلمة مكينة العقيدة ، تطمح الى الخلافة لتصبح باسم الشرع حامية الاسلام ، فلا بدع ان يجد الاندلسيون عندها عطفاً وتشجيعاً كما وجدوا عند سلاطين المغرب وافريقية ومصر ، فتصبح بعد ذلك شواطىء الاندلس غرضاً لغارات القرصان المسلمين يعيثون فيها وينشرون الذعر والاضطراب . فكانت هذه الغارات كافية لتحريك

الاندلسيين مع انتظارهم القوة التي وعدت افريقية بارسالها ، وهم لا تنقصهم الشجاعة ، ولا العصبية الدينية ، ولا كره الغريب البغيض. ومن جملة تساهل العهد معهم ان ترك لهم اسلحتهم ، فكأنه اعدهم للقيام بالثورة ، ولا سيما سكان الجبال الوعرة كالبشرات .

ولم يكن المسلمون منحصرين في غرناطة وحدها ، بل ظلت سائر الولايات الاسبانية حافلة بهم بعد ما استردها المسيحيون ، فان فرديناند رأى من الخير ان يستبقيهم ويعطيهم ذمة المدجنين ، لئلا ينقص عدد السكان فتتأثر التجارة والزراعة . فوجود هؤلاء في قلب اسبانية اشبه شيء بقوة خفية مبثوثة تعتمد عليها غرناطة اذا هبت ثائرة . وغير مستصعب عليهم ان يتفاوضوا ويتفاهموا ليجمعوا امرهم على خطة يضعونها ما دام التاجر الغرناطي يحق له ، كالتاجر الاسباني ، ان يتردد في مملكتي قشتالة وارغون . فلم يمض على العهد بضع سنوات حتى اخذ الجبليون ينتقضون ويثورون ، وبدأت قشتالة تفكر بالغاء العهد او تعديل شروطه . والظاهر ان اول فكرة خطرت لها حفاظاً على الامن ، وتحقيقاً للوحدة القومية ، هي تنصير المسلمين وتعليمهم لغة البلاد وعاداتها لان الاسبانيين اعتقدوا ان هذا الشعب الغريب لن يندمج فيهم ما دام متمسكاً بدينه وعاداته ولغته ، ولعل تساهلهم في شروط العهد كان ترغيباً له في الحكم الاسباني الى ان يتمكنوا من تنصيره او تنصير اولاده على تمادي الزمن . وقد عبر عن هذه الفكرة رئيس اساقفة غرناطة الدون فرناندو ذو تالافيرا (Fernando de Talavera) فطلب عند وضع المعاهدة ان تحسن معاملة الغرناطيين ،

وان يجعل التساهل اساساً لشروطها على امل ان يقبلوا الديانة المسيحية في المستقبل. وقال في ذلك كلمته المأثورة: «هؤلاء اولاد ينبغي ان نغذيهم باللبن.» وقد كان من الطبيعي ان يُترك امر تنصيرهم على عهدة الايام والليالي، الا ان الخوف من الثورات التي طفقت تهدد اسبانية، والحملات التي ينتظر ان تأتيها من افريقية، حمل فرديناند على اتخاذ تدابير قاسية في حد ذاتها، فاصدر امره سنة ١٤٩٩ (٩٠٤) بتنصير المسلمين جميعاً، وارجاع من اسلم من النصارى الى دينه القديم، وكل من رفض التنصر يجبر على مهاجرة البلاد. فاحدث هذا القرار اضطراباً عظيماً في غرناطة والبشرات، وهب اهل البيازين في وجه الحكام فقتلوهم، وكتبوا الى الملك الظاهر قنسو الثاني سلطان مصر مستغيثين، فبعث هذا الى الملكين الاسبانيين يهددهما بالانتقام من المسيحيين الذين في ارضه، فاضطرا الى ان يوفدا مرشد كاتدرائية غرناطة بطرس مارتير ليوضح له حقيقة الامر ويطلعه على الرسائل التي تلقتها حكومة قشتالة من سلطات المدن الحرية في افريقية، تؤكد فيها ان المبعدين لاقوا من الاسبانيين احسن معاملة. واستطاع العاهلان في الوقت نفسه ان يخمدا ثورة الجبليين، ويكرها المسلمين على التنصر ولا سيما الفتيان والفتيات فان التنصر كان شاملاً فيهم. وآثر جماعة ان لا ينزلوا عن دينهم، فرحلوا الى المغرب في مدة ثلاثة اشهر تاركين املاكهم للدولة. قال صاحب نفح الطيب: «وبالجملة فانهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة، وامتنع قوم من التنصر ورغبوا في الثورة، فاستأصلهم الاسبان سبياً وقتلاً، ومنهم من

خرجوا على الامان الى العدوة المغربية . »

ولكن فاجعة المسلمين المتنصرين (Morisques) لم تقف عند هذا الحد ، ذلك بان العدد الاكبر منهم ظل يبطن الاسلام ويحافظ سراً على شعائره وتقاليده . قال المقري : « كان من اظهر التنصر من المسلمين ، وبقي على دينه خفية ، فشدد عليهم النصارى في البحث حتى انهم احرقوا كثيراً بسبب ذلك ، ومنعوهم من حمل السكين الصغير فضلاً عن غيرها من الحديد ، وقامت لهم ثورات في بعض الجبال على غير طائل . »

فقد فهم الاسبانيون أخيراً ان تحويل شعب عن دينه جملة ، بطريق الاكراه ، عمل عقيم لا يؤدي الى النتيجة المنشودة . ولم يجد نفعاً ديوانَ التنقيب (Inquisition) ما قام به من الفحص البليغ عن هؤلاء المتنصرين في الظاهر ، ومن ضروب العقوبات البربرية كالتعذيب والتحريق ، حتى كان عهد فيليب الثاني فاصدر قراراً (١٥٦٥) باخراج العرب المتنصرة من اسبانية كلها الا من حسن ايمانه ولم يلحقه شك في نصرانيته ، وفصل الاولاد الصغار عن آبائهم وامهاتهم ، فوضعوا في المدارس تحت رقابة الحكومة ليتربوا تربية مسيحية خالصة . غير انه لم يتم الجلاء الا في زمن فيليب الثالث ، فاخرجوا اخراجاً عاماً سنة ١٦٠٩ (١٠١٧) ، فخلت منهم ربوع الاندلس بعد ما عمروها بحضارتهم زهاء ثمانية قرون ، وآضت اسبانية للاسبانيين .

تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث .

المراجع

الكتب العربية

ابن الاثير : الكامل

ابن خلدون : كتاب العبر

ابن خلكان : وفيات الاعيان

المقري : نفح الطيب

ابن عذاري : البيان المغرب

ابن بسام : الذخيرة

ياقوت : معجم البلدان

البستاني : دائرة المعارف العربية

بطرس البستاني : ادباء العرب ، ج ٣

الكتب المنقولة

يوسف اشباخ : تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين

(الترجمة العربية لمحمد عبد الله عنان)

الكتب الفرنسية

DOZY, *Histoire des Musulmans d'Espagne*, 4 Vol. petit in — 8, 1861.

DOZY, *Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne*. Leyde — E. J. Brill 1881

Cl. HUART, *Histoire des Arabes*, Geuthner, Paris.

Louis BERTRAND, *Histoire d'Espagne*, Arthème Fayard, Paris.

E. LÉVI-PROVENÇAL, *Islam d'Occident*. Librairie Orientale et Américaine, Paris.

Georges MARÇAIS, *La Berbérie Musulmane*, Aubier, Paris.

J. BERAUD - VILLARS, *Les Touareg au pays du Cid*, Plon, Paris.

C. BROCKELMANN, *Histoire des Peuples et des Etats Islamiques*. (Traduction française de M. Tazorout), Payot, Paris.

فهرست

يوم طليطلة ٥
معركة الزلاقة ١٦
رذريق والمرابطون ٣١
يوم سرقسطة ٥١
معركة الارك. ٦٣
معركة العقاب ٨١
يوم قرطبة ٩٦
فاجعة غرناطة ١٠٥
المراجع ١٢٥

انتهى طبع هذا الكتاب على مطـــابع نصار
في اليوم العاشر من تموز ١٩٥٠ .

946.02
B981mA